قيـم ومعايـيـر في أدب يوسف إدريس

اعداد

محمود القليني

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيـع

فهرس الكتاب

المـقدمـة

للأديب دور قيادي في مجتمعه ، فهو الشخص الذي يرصد بكل دقة حركة مجتمعه إلى الأمام أو إلى الخلف وأيضا حركة الأفراد وهم يدورون في فلك مجتمعهم ، ويسجل ما يؤثر على حركتهم تلك ، سواء الوقوف ضد حركة المجتمع أو الإسراع به ، وموقعهم منه ، أهم يقتربون ليندمجوا فيه ، أو يبتعدوا باحثين عن مركز آخر يدورون في فلكه ، بعدما لم تتوافق حركتهم وفلكهم القديم؛ ولا يقتصر دوره على المشاهدة والرصد فحسب ، بل يمتد ليسهم في دفع حركة مجتمعه إلى الأمام ، ودق أجراس الخطر ، إذا ما توقفت عجلة المجتمع عن السير والتقدم ، أو نكصت على أعقابها ،ويعمل على إعادة التوازن والتوافق بين حركة الأفراد ومجتمعهم إذا ألم بها اختلال أو تعارض " وإذا فهم الكاتب وضعه الحقيقي في المجتمع وأدرك مسئوليته الكاملة ، ونهض بالدور القيادي الحر الذي يعزز مكانته ويرتفع بها إلى مستوى الإيجابية الفعالة فإنه لابد مستجيب لحاجات عصره وقيم مجتمعه بطريقة تلقائية "[١] .

والأدب الواقعي شاخص إلى تلك المهمة ليؤديها على أكمل وجه ، فلا يقتصر دوره على مجرد التسجيل أو النقل عن الواقع ن وإن اكتفى بالنقل – كبعض المدارس التي تلبست ثوب الواقعية ، والواقعية منها براء – فهو لا يعدو عن كونه أكذوبة لا رصيد لها من الحق والصدق ، " إن الأدب الواقعي ليس عقيدة جيل من الأجيال ، أو قرن من القرون ولكنه سجل التطور الإنساني أجمع ، وهو لا يجمد على حال ولكنه يساير التقدم الاجتماعي . وعلى ذلك فإنه لم يعد يقتصر اليوم كما كان مقتصرًا في القرن الماضي على التعبير عن الواقع الظاهر تعبيرًا صادقًا ، ولكنه أخذ يعبر عن الواقع مشتملاً على الصراع بين الفكرتين المتناقضتين أو العقيدتين المتناقضتين ، وتسجيل انتصار الجديد النامي فيها على القديم الناكص على أعقابه ...فالأدب الواقعي لا يحاول اليوم أن يصور الواقع تصويرا آليا ولكنه يرمي إلى خوض غمار الواقع والمساهمة مساهمة إيجابية في دفع التطور إلى الإمام والعمل بذلك على تقدم الإنسانية " [٢].

فلم يعد الأدب نوعا من الترف ، أو نبتا ينمو على هامش الحياة ، متسلقا على الجدران الخارجية للمجتمع وإنما هو شيء جوهري وأساسي ، بل هو ركن من الأركان العتيدة للمجتمع ، يأخذ كيانه وقوامه من الواقع ليعود إليه ، ويهدف إلى تغييره إلى الأفضل ، ودفع المجتمع إلى الأمام . " والأدب ليس مجرد صورة مأخوذة من الحياة وإنما هو تعبير أكثر الناس إدراكا له تعبيرًا يهدف إلى تغيير المجتمع الذي لا يمكن أن يتغير إلا بتغير هذه الحياة "

---

[١]- في الرومانسية والواقعية – د . سيد حامد النساج – صفحة (١٠٨) .

[٢]- الأديب المصري – عدد إبريل – ١٩٥٠- صفحة (١٩٣) – مقال : (الكاتب المنتظر) محمد مفيد الشوباشي – نقلا عن كتاب الرومانسية والواقعية – د ز سيد حامد النساج – صفحة (١٦٨) .

فالواقعية مواجهة حقيقية للمشكلات التي تجابه المجتمع ، وهي إزاء تلك المشكلات تأخذ طريقين:

الأول : حل المشكلة ، أو البحث عن حل للأزمة الحضارية التي يمر بها مجتمعه .

الثاني : وإن لم يستطع الحل أو البحث ، فيكفي أن يظهر المشكلة إلى حيز الوجود الإدراكي ، يكفي أن يضع الأديب يده على المشكلة ، فيكون هذا الفعل نوعا من التغيير ، فالأديب الواقعي أشد ولاء للمجتمع ومشكلاته فهي شغله الشاغل " فالواقعية تعني الولاء للحياة الإنسانية بعرض مشاكل هذه الحياة عرضا سليما يريد الكاتب من ورائه حلا سليما لهذه المشاكل " [٣].

و يعمد الأديب الواقعي إلى تلك المراكز العليا المؤثرة على المجتمع وأفراده وليس هناك إلاَّ القيم التي تمثل المراكز العليا ، لأنه إذا غيرها فقد غير المجتمع وشكَّل أفراده من جديد ، وأعاد صياغتهم صياغة أصيلة . " فإذا أنت غيرت ما لدى القوم من معايير وقيم تغير لهم بالتالي وجه الحياة بأسرها " [٤].

وليس هناك مثل الأدب ليقوم بهذا الدور ، لأنه ينسل إلى النفس الإنسانية خفية ، وقد استبطن أهدافه ليزرعها ضمير الإنسان ، وإذا جاز لنا أن نغير مقولة : (الشعوب على دين ملوكهم) إلى (الشعوب على دين أدبائهم وكتابهم) نكون قد أصبنا في هذا المقام ، ذلك لأن " الشعر والأدب بصفة عامة هو الذي يسن للناس الخلال ويرسم أمامهم الطريق ولا ينتظر ليملي عليه الناس بأي الخلال يشيد وأي طريق يرسم ، فهو إذن ضلال وتضليل أن يدعو الداعون إلى أن تكون مهمة الأديب تصوير الواقع كما يقع ، لأن هذا الواقع لن تزيد واقعيته ذرة واحدة إذا وصفها الواصفون بألف قصة وألف ديوان ، أما الدعوة الصحيحة فهي أن يلتمس الأدباء قيما جديدة وهم يحسون قبل سواهم ضرورتها لحياتنا فينبعثون بها شعرًا أو يرسمونها في قصصهم حياة منظورة مسموعة) [٥].

فهو دور خطير لا ينهض به إلاَّ أولو القوة من الأدباء ، فهو يحس نبض مجتمعه ، ويستجيب لمتطلبات هذا المجتمع من قيم ومعايير.

وليس موقف الأديب هذا بالموقف الجامد الذي لا يتغير ولا يتبدل ، فعليه أن يعمل بمرونة كافية ، وليس عليه أن ييمم شطر الأمس فقط ، ليستلهم منه القيم والمعايير ، بل عليه أن يستلهم اليوم وغدا أيضا ، وعليه أن يوائم بيم ما بيده من قيم وحاجة المجتمع لها ، فإن لم يعد للمجتمع حاجة لمعايير المس فعليه أن يبحث عن قيم جديدة ،

٣- في الرومانسية والواقعية – (١٠٨) .

٤- تشيكوف والقصة القصيرة – شاكر النابلسي – صفحة (٣٠) .

٥- في حياتنا العقلية – د . زكي نجيب محمود – صفحة (٧٤) .

يكون المجتمع اليوم وغدا في مسيس الحاجة إليها " إن الحياة إذا كان تيارها متدفقا متجددا فلا تكون مقاييس غدها هي مقاييس يومها ، والأديب إذا أراد لنفسه مكان الريادة والقيادة في حياة كهذه .اتجهت دعوته إلى ضرورات الغد وقيمه ومعاييره " [٦].

وقد أدرك يوسف إدريس هذا الدور إدراكا حقيقيا ، فأتى نتاجه الروائي ترجمة لمبادئ الواقعية ، ودار حول محاور القيم والمعايير ، لأنه يعلم أنها العصب الحي للمجتمع ، وأن بقاء المجتمع واستمراره مناط ببقاء القيم ودوامها.

ففي روايته (العيب) تشريح دقيق للإنسان ورصد لكل خلجة من خلجاته حينما يقسو الواقع عليه ليدفعه إلى قبول الرشوة ، وينشأ الصراع الحاد بين ضمير الإنسان النقي وواقعه الفاسد ، ولكي يخرج الإنسان نفسه من هذا الصراع يدخل – إراديا – في منطقة الانفصام الخلقي ، فيقبل الرشوة ، ويستخدم أسلوب التبرير ليدحض به القيمة التي تمنعه من قبول الرشوة ، كما فعل الباش كاتب مع(سناء) ليبرئ ساحته أمامها ، ويحاول أن يقنعها بالاشتراك معه.

والرواية رحلة مع الإنسان حينما يتخلى عن قيمه ومبادئه شيئا فشيئا ثم تتغير نظرته وفلسفته للأمور ، بعد أن يصطدم بلا عقلانية مع تناقضات الحياة ويدخل في صراع مع شخصيات منحرفة ، أول ما تهدف إليه هو أن تجرف من تراه يناقضها في سيرتها غير السوية.

والشخص المتمسك بقيمه بمثابة دليل دامغ أمام تلك الفئة المنحرفة ، فهو ضميرهم الحي الذي يقض مضجعهم ، فيسعون سعيا للتخلص منه ، فيجذبونه ليهوي إلى القاع حيث يعيشون ، وهذا ما فعلته جماعة المكتب التي تبيع التصاريح وعلى رأسهم (محمد الجندي).

ونلمح من خلال أحداث الرواية إيمان يوسف إدريس بالإنسان ، فهو طاهر نقي من داخله ، وما يدفعه إلى الخروج عن الطهر والنقاء كلها دوافع خارجية تجبره أن يسلك ذلك الطريق ، ولا تترك له الخيار ،ومع ذلك تجد بقية من الطهر والنقاء أو ترى الجوهر هنالك ما يزال يتحدى الواقع الفاسد .

---

[٦]- فلسفة النقد – د . زكي نجيب محمود – صفحة (٩٧) .

وفي (الحرام) يبين يوسف إدريس أن القيم عماد تلك الجماعة من الناس التي لا تظن بوجود الحرام ، وحتى وإن وجد فهي لا تصدقه ، ووجوده ذات صباح بينهم متمثلا في ذلك الطفل المقتول تحت شجرة الجميز على حافة الخليج هو بمثابة صدع لذلك الجدار القيمي ، ولا يوجد شيء يقلب هذا المجتمع رأسا على عقب إلاَّ هذا الصدع .

ويستغل يوسف إدريس هذا الحدث أفضل استغلال في إلقاء الضوء على فئة من الناس تعاني الأمرين في سبيل الحصول على الشظف من العيش وهي فئة الترحيلة أو الغرابوة . ويستخدم (وجهة النظر) ليوضح موقف أهل التفتيش من الغرابوة ، ومن (عزيزة) أم الطفل الحرام ، هذا الموقف – الذي كان يقفه أهل التفتيش – كان يشوبه العداء والاشمئزاز والتباعد في البداية ، ولكن بعد ذلك حينما عرفوا بالظروف التي مرت بها (عزيزة) وحكاية الزوج المريض والأولاد وجزر البطاطا ، بدأ التغيير في موقف أهل التفتيش من الغرابوة وعزيزة ، فحل الود محل العداء ، والإقبال محل الاشمئزاز ، والقرب محل التباعد ، والتحمت الفئتان التحاما رائعا في نهاية الرواية ، بعد موت (عزيزة) ، كما ظهر في موقف العزاء الذي صوره يوسف إدريس فأبدع تصويره ، غير غافل عن أدق المشاعر الإنسانية التي يجليها الموقف .

ويعرض كذلك نموذجا للنفس الحبلى والمثقلة بالذنب والإثم ، وهي نفس (عزيزة) فبالرغم من أن حملها كان سفاحا وقامت بقتله ، إلاَّ أن هذا لم يخرجه عن كونه ابنا لها ، امتزج بلحمها ودمها واخذ منها الكثير وعرضها (إدريس) لفيض من الإدراك الواعي المبصر لوجودها المسمم بالذنب ، فقد كانت تستطيع أن تمنع حدوث ما حدث ، ولكنها لم تعارض ولم تقاوم ، فأي شيء عارضته وقاومته في واقعها كله ووجودها حتى تعارض وتقاوم اعتداء (محمد بن قمرين) عليها ؟!

وسعت (عزيزة) لتدمير ذاتها تكفيرا عن ذنبها ، لجأ القاص إلى عملية الولادة الثانية التي قامت بها (عزيزة) ليحملها رمزا أعمق وبعدًا أشمل ، لتتخلص من الذنب والإثم ، ومن وجودها ،وذهبت إلى نفس المكان الذي ولدت فيه الطفل وتقمصت مشاعر وحركات الولادة ، وأهل التفتيش والغرابوة يحيطون بها في عز الظهر ، وتموت عزيزة أو تقتل وتدمر وجودها تكفيرا وتطهيرا لتلقي الضوء على أسوأ واقع عاشه ويعيشه الإنسان .

وفي (العسكري الأسود) يعرض (إدريس) صورة للإنسان المحطم المُخَرب الذي انقلب إلى كائن آخر لا تربطة أي صلة بالجنس الإنساني ، كائن متقلص يهرب من الوجود ، منسحب على نفسه ، الهدف الذي يعيش من أجله هو الهروب من كل الوجود ، والذي حول الإنسانَ إلى هذا المسخ هو السجنُ والتعذيب وذلك من خلال عرضه لشخصية (شوقي) الطبيب الشاب الثائر الذي يهدف إلى مصلحة بلده

ولكن حينما يُقبض عليه ويُسجن ويُعذب ينقلب إلى الكائن سالف الذكر ، ورُمز إلى سوط العذاب والقوة الغاشمة التي تهزم الإنسانية وتسحق البشرية بالعسكري الأسود (عباس محمود الزنفلي) والذي ذاع صيته في ذلك الوقت بتعذيب السياسيين وخصوم الحكومة ، ويفيض (إدريس) في شرح المراحل التي يمر بها الشخص الذي يقع عليه التعذيب وأثر التعذيب عليه في (سيكولوجية المُعذَب) . وينتقل إلى أثر التعذيب في المُعذِب ، فمثلما يدمر ويخرب العذاب المُعذَب كذلك يدمر ويخرب العذاب المُعذِب (سيكولوجية المُعذِب)، وهذا ما توصل إليه وأدركه (شوقي) ، حينما كُلف بالذهاب إلى (عباس) للكشف عليه ، وأدرك بجلاء هذا القانون الأزلي ، أنه حينما يظلم الإنسان الآخرين، يكون في نفس الوقت ظالما لنفسه.

أما في (رجال وثيران) فهي تحمل أكثر من مدلول ، فهي صراع القوة متمثلة في الثور ضد العقل متمثل في المصارع ، هذا الصراع يلخص صراع الإنسانية خلال مراحلها الطويلة ، ولم يكن هناك من سلاح مع الإنسان أمام تلك القوى الطبيعية حوله إلاَّ العقل ، واستطاع به أن يقف أمام القوة بل وينتصر عليها ، هذا العقل يعطي له الكثير من حرية الحركة ، بمرونة مطلقة في هذا الكون الفسيح ، ثم يلقي الضوء على فئة المصارعين ، ويتخذ مصارعا ليعقد بينه علاقة صداقة ، منشأها أن هذا المصارع يحمل قدره فوق يديه وفي أي لحظة قد تكون نهايته ، ويبحث في تلك الدوافع التي تدفعه ليبيع وجوده ن تلك الدوافع ناتجة عن الواقع غير المتوافق مع الإنسان ومع وجوده الإنساني.

وفي (نيويورك ٨٠) عرضٌ لقمة الحضارة الغربية ، ونقائص تلك الحضارة أثناء لقاء القاص مع معالِجة نفسية أو بغي ، تمثل إنسان تلك الحضارة ، التي تحكمه حضارة القرن العشرين هنالك ، وتملي عليها قيمها ومعاييرها ، التي يتصرف ويفكر بمقتضاها ، وتصدر تلك الحضارة عن الفلسفة الزرائعية أو البرجماتية ، التي تحدد القيمة على أساس العائد المادي ، فأي فعل مهما كان فاضلا لا يعد كذلك إذا لم يكن له أثر مادي ملموس ، ويحاول أن يمثل القاص حضارته بكل قيمها ومعاييرها ، ويخرج بالفارق بين الحضارتين ، وهو القيمة الإنسانية، ويعري القاص المجتمع الأمريكي موضحا أنه رغم التقدم التكنولوجي في جميع الأنشطة الإنسانية ، لم يوازيه تطور ورقي للقيم والمعايير ، بل ظلت كما كانت في العصور المتخلفة ، بل نظرت المعالِجة النفسية إلى قيم ومعايير حضارة القاص على أنها قيود وعراقيل تعوق حركة الإنسان عن اللحاق بركب التقدم الإنساني.

وتلك الحضارة المادية لا تخدع الإنسان ببريقها الزائف ، فالحكم على رقي أي حضارة لا يتحقق إذا لم تحقق الرضي والإشباع للجسد والروح ، وإن الاكتفاء بجانب واحد لا ينهض ليقوم دليلا على رقي تلك الحضارة ، ويدور الحوار سجالا بين القاص و (باميلا جراهام) لتنسحب في النهاية غاضبة تتقد غيظا بعدما عرى لها وفضح وجودها الداعر ، وحياتها التي لا تزن حياة الحيوانات في ميزان الحضارة الإنسانية.

توطـئة

هناك مدارس ونظريات كثيرة في النقد ، استمدت وجودها وخصائصها وملامحها من النص الأدبي ، وكان النص الأدبي كالأرض التي تمد كل زرع حسب غذائه وما يتطلبه وجوده من ماء وهواء ، ويجد فيها كل نبت ما يمكن له أن يستغلظ ويستوي على سوق هو ييسر له استمرارية البقاء.

وإذا كانت تلك النظريات والمدارس تدين للنص الأدبي في منشأها وبقائها إلا أن بعض المدارس ابتعدت كثيرًا عن النص ولم يعد هناك إلاَّ وشائج واهنة تربطها بالنص والبعض الآخر أصبح منبت الصلة بالنص ، واستقل بوجوده عنه وجاء نتاج تلك النظريات بعيدًا عن مدلولات ومقاصد العمل الأدبي ، وكل ما كانت تقدمه للنص هو نوع من التغريب له ، والرؤية التي كانت تقدمها متغشية بكثير من الضباب التي تمنع القارئ من الرؤية الصادقة الواضحة للنص ، وتستعين تلك المدارس بأخر ما توصل إليه العقل البشري في مختلف العلوم النظرية من علم نفس واجتماع ولغة ...إلخ ، في استكشاف مسارب العمل الفني ، وتطوع – بنوع من التعسف – النص الأدبي ليتوافق وتلك العلوم ، ناسين أنهم بعملهم هذا يسلبون أجمل ما في الأدب ، وأنه أشمل وأرحب من أن تُحد مقاصده ومعانيه بما تخرج به علينا تلك العلوم من تفسير وشرح ، فحينما يكتب الأديب يستمد مددًا من هذا الرصيد التي تزخر به النفس الإنسانية ، من مشاعر وأحاسيس ، وتلك تتأبى أن تسلس قيادها لعالم نفس أو اجتماع أو لغة ، لأن كل أولئك سيحولونها إلى رموز ومصطلحات نظرياتهم القاصرة أن تعي رحابة وشمولية النص الأدبي ، ولسنا بهذا القول نعارض استعانة الناقد بنتاج تلك العلوم لدراسة النص وفك بعض رموزه وإذا كان باستخدامه ما تقدمه تلك العلوم يبتعد عن النص ، وإن لم يزده هذا الابتعاد اقترابا من شمولية الرؤية وسعة أفق الفهم للنص موضوع الدراسة فهو ليس بالناقد الأدبي ن وما استخدمه من وسائل وأساليب لم يزد عن كونه ببعض الأحاجي والفوازير فنحن ضد إخراج العمل الأدبي عن فلكه الذي يدور حوله ولا نرده إلاَّ إلى مصدره ومنبعه النقي ، وهو النفس الإنسانية ، وما تمليه تلك النفس من منطق يحكم تصرفاتها واستجابتها إزاء جزئيات الوجود المعاش ، هذا المنطق نستلهمه أو بمعنى أدق نستنتجه بعد استقراء شامل للنص بأدق خلاياه ن بدون أن يصرفنا هذا عن تمثل صورته الكلية وأطره العامة التي توضح ملامحه ، بهذا المنطق الذي يفيض عنه العمل الفني كما يفيض الشعاع المشرق الكاشف من الشمس ، وهو النواة التي تنتظم خلايا العمل الأدبي في فلكه.

وتعاملنا مع النص كتعامل رحالة يدخل مدينة مجهولة ، يدخلها لأول مرة يسير مستقصيًا مستكشفا مستمتعا ، يترك قدميه لطرق وسبل المدينة ، ليسلمه طريق إلى عطفة إلى زقاق ، واضعا يداه على عروق الحياة مسترشدًا بأنفاس وحركة وعرق وضوضاء وصراع وحراك الأحياء.

فالنقد ليس نسج شرنقة بخيوط من حرير حول العمل المنقود ، لعزله عمن حوله ، أو وضعه في قوقعة المصطلحات والرموز التي تصنع أرستقراطية فكرية النقد الحق ليس بهذا العسر ، وإنما هو نوع من القراءة ، ولكن في أعلى درجات الوعي الإدراكي لفهم العمل المنقود ، إنه إزالة كل الحجب والحواجز بين القارئ – أي قارئ ييمم شطر الفهم الصحيح – والنص الأدبي ، وليس تحويله إلى ألغاز ورموز وأحجية ومصطلحات تضع غشاوة كثيفة على العمل الأدبي ، وإن لم يزد النقد من اتساع مساحة القراء فهو نوع من النقد المفلس.

الفصــل الأول :
العيـــــب

الانفصام الخلقي

السقوط

إعادة التشكيل

الصراع

انطلاقا من تجريم السلوك الخطأ ، ليس لأنه خرقا لقانون وضعه المجتمع ليعاقب كل من تسول له نفسه تجاوز ما حدده ، ولكن لأن هذا السلوك خطأ في حد ذاته ، ينبغي على الإنسان تجنبه بغض النظر عن الإضرار التي قد تلحق به أو العقوبات التي قد تنزل به ، وضع القاص هذا العنوان لروايته . فقد يستطيع الإنسان أن يغافل المجتمع ، وأن يرتكب ما يشاء ، وقد يستطيع - وقد أوتي قدر من الذكاء – أن ينسل من بين فقرات القانون ولا يقع تحت طائلة العقاب ، وهنا يكون المبرر موجودا لارتكاب ما يخالف القانون.

ولكن أليس هناك رادع يردع الإنسان غير القانون ؟

ألا يمتنع الإنسان عن الجرم إلا إذا كان هناك عقاب رادع له ؟

الأمر مع الإنسان ليس ارتباطا شرطيا كحيوان (بافلوف) ، لا يفعل الشر لأن هناك عقاب ، أو يفعل الخير لأن هناك ثواب ، ليس الإنسان – أرقى المخلوقات – مثل الحيوان الأعجم ، ذلك لأن في داخله محكمة كاملة ...تجرم وتدين وتحكم وتنفذ ، تلك المحكمة هي الضمير الحي للإنسان والذي يستلهمه الفرد في معرفة الغيب وما ليس بغيب .

١ -الانفصام الخلقي:

تصطدم (سناء) بالواقع الفاسد محاطًا بها ، يريد بتياره الجارف أن يبتلعها لتكون من ضمن الغرقى ، وتقف على شط هذا الواقع حائرة ، مفكرة : فأما أن حياتها بكل ما حوت لا تساوى شيئا إزاء هذا الواقع الجديد عليها في المصلحة التي تعمل بها ؟ أو أن حياتها هي الحياة الحقة ، وواقع المصلحة واقع شاذ منحرف ليس بينه وبين العالم الذي نشأت فيه من قبل أي صلة ؟

وليس المشكل هنا ، فنحن لا نعجب إن صادفنا فسادًا ، فالأشياء تذكر بنقائضها ، ووجود الفساد في مكان ما لا يعد شيئا مستغربا ، طالما هناك معادل موضوعي لإنكار هذا الفساد لدى الإنسان ، وهذا نوع من الرفض السلبي للواقع المتخم بالفساد (فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان) ، وإنما المشكل أن يوجد الفساد والانحراف ويوجد ما يبرره ويعطي له نوعا من المعقولية التي تضفي عليه غلالة رقيقة من الشرعية ، حينئذ يلتبس الحق بالباطل ، ويدلهم الإنسان بين شعاب الخطأ والصواب.

وأن يتطرق الفساد إلى فروع الشجرة ، هذا ليس بشيء ، فقد تصح تلك الأفرع بعد حين ، أو تبتر ويخرج غيرها صالحا من غير سوء ، أما أن يزحف الفساد إلى العمق ، إلى الجذر ، فهذا هو الفساد الأكبر ، الذي ليس صلاحا بعده ، ويوم يقتنع الإنسان أو يقنع غيره بسلوك منحرف لهو اكبر دليل على فساد الإنسان وعلى ما يحيط به من واقع فاسد كان له نصيب أوفر في إجباره على سلوك ذلك المسلك.

فحينما رفضت (سناء) الاشتراك مع جماعة المكتب التي تبيع التصاريح حاول الباشكاتب أن يبصر (سناء) وقبل أن يبدأ معها ، صفحة (٦٩) :

" سألها صفوت أفندي الباشكاتب أول ما سألها عن رأيها فيه ، أوسيء؟ أفي ملامحه أو تصرفاته ما يوحي بالجريمة والإجرام ؟

أجابت (سناء) بالنفي ، فالباشكاتب قد بدا لها طوال عملها معه وخوفه من الله والحساب والميزان لا يقل عن خوف عالم متبحر في الدين ، ما الذي يدفع رجلا هذا شأنه إذن إلى أن يكون شريكا في عمل قذر تأباه النفوس ؟ " سؤال قديم قدم الخطيئة ، ما الذي يدفع الإنسان إلى الخطأ .أهو طبع الإنسان ؟

أم الواقع المسلط على رقبته ؟

وإذا كان الواقع فأين إرادة الإنسان ؟

يقول (صفوت أفندي) مبررًا ما يفعله هو والآخرون : " الدنيا يا سناء يا بنتي ، العيشة . أنا ماهيتي كلها بعد الخصومات ١٩ جنيه و٢٣٠مليما ومصاريف بيتي ما تقلش عن ٥٠ أو ستين ن عندي ولدين في الجامعة ، وبنتين وولد في الثانوية ، وبنت في المعهد وعيلين في إبتدائي ، ولي اخت مطلقة وقاعدة معيا هي وأولادها ثلاثة ن منهم واحد طلعناه من المدارس وبيشتغل عامل في مصنع ساكن في بيت الناس بيحسدونا عليه ، ومع كده إيجاره ثمانية جنيه ويبقى بند الأدوية ن بس بيأخد منا بالميت جنيه في الشهر غير الدكاترة ، لو في مكاني تعملي إيه ؟).

إذن هي قسوة الواقع على الإنسان ، يدفعه إلى ارتكاب ما يرتكبه ، ويعزي الإنسان نفسه بأنه يفعل هذا ليس لحاجة في نفسه ، وإنما لأجل غيره ، فهو مضطر ويأتي رد (سناء) على هذا التبرير بقولها : " اعمل أي حاجة إلا كده ، أعلم ولادي بفلوس حرام ؟ أطلعهم من المدارس أحسن وأشغلهم.

قهقه الباش كاتب بسخرية مريرة ربما لسذاجة الاقتراح :

لو رضيت أنا أمهم ح ترضى . ولو رضيت أنا وأمهم ح يرضوا هم ؟ ولو اشتغلوا حتى ح يشتغلوا إيه ؟ ح يكسبوا إيه ؟ "

فالشخصية هنا محاطة بأكثر من جهة تدفعه وتحضه ، وهو لا يملك إلاَّ أن يسير في ذلك الطريق ، وكل ما يفعله نوعا من التبريرية الزائفة .

أيمكن أن يزحف الفساد إلى جوهره ، إلى قلبه ، فيقتنع به اقتناعًا كاملاً ؟

هنا يحدث الانفصام الخلقي ، أن ينفصم الواحد إلى اثنين ، فرد يرتكب ما يرتكبه ، والآخر يعارضه معارضة كاملة ، وبهذا يحدث التراضي والتعادل السلمي بين الإنسان وبين واقعه ، وإذا ما سألت كيف يكون هذا الإنسان فردًا واحدًا ، فأما أن يكون الإنسان مفسدًا أو مصلحًا ، كان جوابه المثل البلدي الذائع : (دي نقرة ودي نقرة).

وقد يكون هذا الانفصام انتصارا من الإنسان النقي على واقعه القذر أو تحدي نظري للفساد أن يتطرق إلى جوهره فيدنسه ، فالإيمان والأخلاق والقيم موجودة ولكن ليس لها أي أثر عملي ، فهي كالكتب المرصوصة على أرفف المكتبة مجرد أسماء طالما لم تمتد إليها اليد ، فالواقع بقتامته يمنع تلك القيم أن يكون لها أثر في محيط الإنسان ، وهو لا يعترف إلاَّ اعترافا نظريا فقط ، وذلك نوع من التوافق الإنساني مع واقعه ، ولكنه توافق قائم على التعارض الصارخ ، نتج عنه تفسخ في كل شيء ، فالواقع فاسد ، والأخلاق والقيم موجودة ، ولكن لم تقم بدورها في إصلاح الواقع ، وهذا من شأنه أن يضفي غشاوة من عدم الاهتمام واللامبالاة بالقيم ويستبدل بالقيمة أشياء أخرى من أهمها المال ، فلا قيمة للعلم ، ولا للأدب ولا للأمانة ولا للإخلاص ، القيمة الوحيدة هي المال.

فالتاجر لا يرى غضاضة أن يخرج من المسجد بعد أن أدى فريضة الصلاة لربه ، لا يجد غضاضة أن يغش فيما يبيعه ، فالصلاة شيء والتجارة والربح الوفير شيء آخر ، فإيمان هذا التاجر لم يتعد القول أو الفعل الأجوف إلى الفعل الإيجابي وهذا ما اكتشفنه نساء المصلحة و (سناء) حينما ذهبن يوم الأحد للاحتفال بعيد ميلاد زميلتهن (يسرية) وأخذن يتحدثن عن هذا الانفصام الخلقي ، صفحة (١٩) :

" – عندنا محمد أفندي راجل زي أولية الله تمام حاجج مرتين وطول النهار السبحة في أيده ن وطول النهار يكلمنا عن اللي يصح واللي ما يصحش ، والمصيبة أنه مش بيدعي ، ده جد تلقيه كريم وعنده نخوة وشرف ونبل ، أل أعرف لك بعد كل ده أنه بياخد على كل استمارة جنيه ،معتبرها عيب وكل حاجة ، إنما يقول لك على رأيه : (هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة).

ونروح بعيد ليه ؟ رئيس الإدارة بتاعتكم يا سناء بيلعب بوكر بدينه ، وقال إيه قبل ما يلمس الورق لازم يقرأ الفاتحة . وتدخلت نور صاحبة الحفلة

طيب أنا بعيني بقى شفت الحكاية دي ، الراجل اللي ساكن تحتنا ده موظف في شركة ن لو كنتم هنا إمبارح كنتو سمعتوا الصراخ جايب من آخر الشارع وكل يوم والتاني مولد بالشكل ده وعلشان إيه ده كله ؟ حضرته بينزل ضرب في ابنه لما بيجي متأخر من برة ، ومتأخر دي عنده يعني بعد الساعة عشرة كويس كده ؟ إيه رأيكم لينا واحد قربنا بيشتغل معاه لما سمع الحكاية دي مات م الضحك وقال مش معقول ده ، أي حد تاني معقول ، إنما الراجل ده بالذات ده معروف عنه زي الشمس بيورد الستات لكل الموظفين الكبار في الشركة.

ومستغربة ليه ؟ هادي نقرة يا ولد عمي وهادي نقرة .

وارتفعت ضحكاتهن عالية ، وما لبثت سناء أن قالت مواصلة نغمة السخرية :

الظاهر الرجالة دول عندهم لكل مبدأ دوسيه ...الشرف في بيته غير الشرف في عمله ، والحرام في الليل غير الحرام في النهار ، والفضيلة ما تمنعش الرذيلة كله موجود في حالة تعايش سلمي.

ثم اعتدلت جادة لتكمل أرائها (الفلسفية) بقصة حقيقية عن رئيسها عم صفوت أفندي الرجل الذي هدهد عليها كالأب وحاول أن يقنعها باقتسام الرشوة والذي لا تخلو جملة من جمله من حديث شريف أو آية قرآنية . من يومين كان صفوت أفندي يحكي لي كيف اكتشف مرة مع ابنه الصغير إصبع طباشير ملون سأله عن مصدره فتلجلجن وحقق معه

فعرف أنه أخذه من صندوق الطباشير في حجرة الرسم دون علم المدرس .وكيف ظل ساعة يشرح له خطأه ويوضح له الجريمة التي ارتكبها ، وكيف أمره في النهاية أن يذهب في الغد إلى المدرس يعترف له بما حدث ويرد له الأصبع وكيف لم يفعل الولد ، وكيف ضربه وأخذه من يده في الصباح وذهب معه إلى المدرسة وجعله يعترف للمدرس أمامه بما فعله وطلب الصفح والمغفرة ، قصة من فم عم صفوت أفندي حكاها عرضا ودون أن يكون له من وراء حكايتها هدف ن وعم صفوت أفندي هذا لا يجد عيبا أبدًا في الحصول بطريقة غير شريفة بالمرة على نقود تشتري آلاف أصابع الطباشير ؟ وأنهت سناء قصتها قائلة : أنها لا تزال إلى الآن حائرة مع صفوت أفندي لا تعرف كيف تحكم عليه والمنطق والعقل حين تنهي عن الشيء بحرارة وصدق حقيقيين في نطاق وبحرارة وصدق ترتكبه في نطاق آخر ؟ كيف تحكم عليه ؟).

إن الشخصية إذ تفصل بين ما تؤمن به وما تمارسه بالفعل ، تفعل ذلك لا لشيء إلاَّ لكي تتجنب عقابها لذاتها ، فهي أمام خيارين :

الأول : أن يخفف من حدة وكثافة الجرم ويفرغه من محتواه بالأسلوب التبريري.

الثاني : أو يتجاهل تجاهلاً تامًا هذا التعارض الحاد بين ما يؤمن به وبين ما يمارسه ، وهذا بمثابة الدفاع الذاتي ، ليتجنب الشخص الوقوع تحت تأنيب الضمير الذي لا يستطيع الهروب منه ليلاً أم نهارًا. وبتخفيف الجرم والتجاهل يبقى عقاب الذات للذات معلقا ، أو يبقى في منطقة الظل لا يتحرك ، وإذا ما عثرت الشخصية على شخصية أخرى تماثلها في الانحراف ، وجب حينئذ عقاب الذات للذات ، فالأب الذي يعمل قوادًا في الشركة يعاقب ابنه عقابًا شديدًا لمجرد تأخره في العودة إلى البيت إلى العاشرة والباشكاتب صفوت أفندي يقف أمام ابنه الذي سرق أصبع الطباشير موقف القاضي الحازم الصارم الذي لا تأخذه رأفة في حدود الله ، ويمعن في هذا ويأخذه ويذهب به ليعترف أمام المدرس أنه سرق أصبع الطباشير.

فالأب هنا – في الحالتين – ينتقم من نفسه في صورة ابنه لقد رأي نفسه المنحرفة في ابنه ، فليعاقب ذاته من خلال عقابه له ، وليشدد في العقاب ، فهو بعد ذلك بسبيله إلى الراحة ، ألم يعاقب ذاته على ما فرطت فيه ؟ فقد يحلل الإنسان لنفسه شيئا حرمه على الآخرين ولا تعارض بين الموقفين ، فقد ارتكب خطأ بأن حلل لنفسه شيئا ، وعاقب نفسه في هذا بأن حرمه على الآخرين ، ولا انفصال – في رأيه – بين ذاته وذوات الآخرين.

وشخصية الباش كاتب تجسيد حي لهذا الانفصام ، وظهر ذلك من خلال محاورة (سناء) له ، حينما ردت على منطقه بقولها (ص ٧٠) : " – بس دي جريمة ...سرقة ...وأنت رجل طيب . دا كأنك بتمد إيدك في جيب واحد لا مؤاخذة يعني ..وبتنشل منه فلوس ن إزاي ترضى تعمل كده ؟

يا بنتي الأخلاق الكويسة حاجة ، وأكل العيش حاجة تانية

أكل العيش حتى بالسرقة ؟

يا بنتي إنتي لسة صغيرة ع البر ما شلتيش هم المسئولية لما تكوني مسئولة عن جيش زي اللي أنا مسئول عنه وكل يوم لازم تسدي ٢٠ بق مفتوحين لك ، مش ح تسميها سرقة أبدا ، أنا بسرق مين ؟)

وكأن (سناء) اقتنعت في النهاية بهذا المبدأ التبريري ، فبعد ما سألها الباشكاتب هل ستنفذ ما قالته للجندي : (ـ أنا قلت له كده عشان هو ...هو مش محتاج زيك وأخلاقه وحشة)

وحينما تجتمع مجموعة من الناس ، وتقر عمل من الأعمال ، هذا الإقرار يعطي نوعا من الشرعية لهذا العمل الذي تزاوله تلك الجماعة ، بغض النظر عن هذا العمل أهو خطأ أم صواب ، فالذي يعطي تلك المعايير هي الجماعة المزاولة للعمل فرب عمل ما يكون في مجتمع خطأ وعيب ، ونفس العمل في مجتمع آخر ليس بعيب ولا خطأ ، والذي أوجد هذا الاختلاف هو موقف كلا المجتمعين من العمل.

فالأول اعترف به ، وأقره فأصبح خطأ

والثاني لم يعترف به ، ولم يقره ، فأصبح عيبا وحراما

ولفظة العيب ليس لها رصيد إلاَّ ما تعطيه لها الجماعة الإنسانية من تأثير يقول القاص في صفحة (٧٣) كانت مزاولتهم لأعمال المكتب الثاني كجماعة قد أضفت على العمل نوعا من القانونية ومحا عنهم كل أثر للإحساس بالذنب)

وإذا وجد فرد يناقض تلك الجماعة في سيرتها ، فهو الدليل الدامغ أمامهم على انحرافهم ، وتبدأ الشرعية تتقوض شيئا فشيئا بعد أن كانت سائدة ، ولا يعكر صفوها شيء ، وهذا ما كانت (سناء) تفعله لجماعة المكتب ، صفحة (٧٣) : " سناء بوجودها واشمئزازها ونظراتها جعلت إحساسا جديدا يبدأ يزحف ... إحساسا بخرق القانون ، بارتكاب معصية ! وقد تجسد هذا على هيئة ضيق شديد بسناء ووجودها ورغبة ملحة في التخلص منها "

وبالرغم من أن سناء تعهدت لهم أنها لن تتدخل في شئونهم ، ولن تنخرط في عملهم ، وآثرت الصمت ، إلاَّ أن مجرد وجودها السلبي هذا وصمتها كان له أبلغ الأثر في نفوس الجماعة ، فهي – سناء – صفحة ماء صاف نقي ، ترى مجموعة المصلحة على سطحها وجوههم القلقة ، ونفوسهم الممتلئة بالذنب ، المغلولة بالعيب ذلك لأنها تصدع جدران الشرعية الزائف الذي أقاموه بينهم ، باجتماعهم على فعل واحد والذي يضخم ويزيد من هذا الصدع أنها أنثى والمفروض أنها أضعف من الرجل ، والرجل أقوى منها ، ليس في القوة العضلية فحسب ، بل في كل شيء وأهم شيء الإرادة ، إرادة مقاومة الانحراف والفساد ، فكيف لتلك الأنثى أن تقاوم وتقف وتعترض وتصر على ما لم يستطع عليه أولو القوة من رجال المصلحة ؟! وهذا بمثابة العري الخلقي ، فالرجل قد يتعرى أمام الرجل بدون أن يكون هناك خجل أما أن يتعرى خلقيا على مشهد من أنثى فهذا أنكى وأشد على الرجل.

في صفحة (٧٤) : " إن المذنب لا يحسد البرئ ، إنه يكرهه ، ويحس به كأنه ضميره ، وكأن الضمير هو الجزء البرئ في قلب المذنب ، وسناء ذلك الركن الخامس البرئ في المكتب ، كانت قد أصبحت كالضمير المقيم الذي لا يتحرك ، والذي لا تخفي عليه خافية ، والذي يقابل كل ما يدور أمامه بالصمت والسكون ليتها كانت تتكلم أو تنصح أو حتى تشتم ، ليتها تفعل أي شيء ، إلاَّ أن تسكت والكارثة أنها ضمير مؤنث أن الرجل لا يخجله كثيرا أن يرتكب الخطأ أو الحماقة أمام زميله الرجل ، أي رجل ولكنه يخجل ببشاعة أمام الأنثى أي أنثى "

وهذا يلقي ضوء على نفسية المجتمعات الإنسانية ومكونات تفكيرها ونوازع تصرفاتها ، ويؤكد أن أخلاق القطيع لا تنطبق على الإنسان ، فيكفي أن يسير فرد واحد في طريق مغاير حتى يسبب القلق والضيق والاضطراب لبقية الجماعة.

وهذا يفسر مسارعة الجماعة لقتل الخارج عليها ، سواء كان الخارج هذا ثائرًا أو نبيا أو مصلحا ، فهو يعطي نتيجتين:

الأولى : دليل حي على ضلال وانحراف الجماعة ، وكسر لشريعتهم ، يرون فيه كل ما يحاولون الهروب منه ، وكأنه لسعات ضمير قلق يريدون إخراسه إلى الأبد حتى لا يقض مضجعهم ويقلق راحتهم .

الثانية : إنه بمثابة شرارة نار مطهرة ، تنتقل إلى بقية الجماعة فردًا فردًا ، حتى تعطي الشرعية الكاملة للفعل المغاير لما تسير عليه الجماعة ، ومع مرور الوقت يزداد الفرد إلى اثنين وإلى ثلاثة وهكذا .

وبقيام الفرد بهذين العملين يضطرب حال الجماعة وتدخل في طور من التغييرات ، وهذا ما ترفضه الجماعة المنحرفة منذ البداية .

(وكان طبيعيا جدا في مثل ذلك الجو أن تحدث ارتباكات في مزاولة العملية ن فمحاولات كل منهم للتخفي واستدراج الزبون بأقل ما يمكن من الضجة وبسرعة لا تثير الانتباه ، وبالذات انتباه (سناء) هذه المحاولات كانت غالبا ما تفشل وكثيرًا ما تصدر من الزبون كلمة أو إشارة تفضح ، فيفقد الموظف أعصابه ويعدل عن الصفقة نهائيا بين عجب الزبون ودهشته ، ويصر على أن يأخذ القانون مجراه وفي إصراره ذلك يرفع صوته ، ويعظ ويحاضر ، ويكاد يشهد الجدران والمكاتب والأثاث على ما يقول ، إنك بدأت تحدث منافسات وبدأ كل منهم يريد أن يبدو أكثر من الآخر غيرة على القانون وفي مقابل هذا بدأت تحدث اتفاقات خاصة ن وبينما الواحد منهم يرفض في العلن ويصر على الرفض إذا به يتفق سرا مع الزبون ويتقاضى الثمن وحده ، بعيدا عن أعين الزملاء ، بعيدا عن الركن الخامس).

إنها بمثابة ضمير الجماعة ، الكل يخشاها ، الكل يريد أن يرضيها ، وإن لم يرضها فلا يريد أن يغضبها ، وهذا الموقف يوضح أن ليس هناك مبرر أن ينحرف الإنسان بحجة أن المجتمع يقر ذلك ، أو لا يعاقب على ذلك ، ولتكن نقطة الإصلاح من حيث يقف هو ، ولم لا يضع الإنسان نفسه في موقف : إن صلاح المجتمع كله مناط بصلاحه ، وفساده متوقف عليه ، إنها مسئولية أخلاقية تحتم على الإنسان ألاَّ يكون مستقبلاً فقط من المجتمع ، ويكفر بما يكفر به ، فكل إنسان به شيء من طبيعة الثوري ، أن يعارض ويقول لا ، يكون المنطقة التي تؤكد الصواب من الخطأ ويوم أن يعرف المجتمع – معرفة يقينية – أن هذا صواب وذاك خطأ لن يجرؤ أي فرد على ارتكاب الخطأ .

وليس هذا بالموقف السهل ، فهو موقف بطولي ، وليس كل الناس أبطال فهو والمجتمع خصمان ، والويل لمن يكون خصما للمجتمع ، فهو الشاذ وهو المنحرف وهو المذنب ، وكل النعوت ملتصقة به ، فهو الذي بدأ بمعادة الجماعة وعليه أن يتحمل .

وكان هذا موقف (سناء) من جماعة المكتب ، فها هي تشعر بأنها مكروهة منبوذة ملعونة صفحة (٨٠) : (ومن الثامنة والنصف يبدؤن في الحضور ومن أول الباشكاتب إلى محمد الجندي آخر القادمين تخرج التحية فاترة لا روح فيها ولا طعم ، هذا إذا لم يتشاغل بعضهم عن قولها أصلا ،لا تغيير !! وكأنها هي التي أذنبت ، وكأنهم ليسوا المخطئين).

إن قوة الجماعة لا يستهان بها في إجبار الفرد على قبول ما ترتضيه تلك الجماعة ، والمثل الشعبي يفلسف هذا الموقف بجلاء (كُل ما يعجبك ، وألبس ما يعجب الناس) فالمجتمع يريد كل أفراده متوافقين معه ، وليس من شاذ هناك .

٢ـ السقوط:

(سناء) فتاة طاهرة نقية ، أكثر ما تخشاه العيب والحرام ، رُبيت على الخلق القويم ، لم يعكر صفو تلك الطبيعة إلا تجارب مبتورة الأوصال ، فعلاقة الحب التي نشأت بينها وبين طالب الطب حالما نبذتها عندما أصر هو على حب (الجسد) بينما هي لا تؤمن إلاَّ بحب الروح ، والتجربة التي مرت بها مع زوج خالتها حينما أراد اغتصابها وقاومت مقاومة عنيفة ، وكان مصدر مقاومتها مفهوم الحرام عندها (٩٨) : (ولكن لا المفاجأة ولا الإطباقة ولا السرعة التي حدثت بها الحادثة كانت السبب في رعبها ، الرعب الذي اجتاحها وشل إرادتها وجعلها تناضل مناضلة النائم في كابوس ر يخرج عن حلقه صوت ، ولا يملك رفع أصبع هذا الرعب كان بسبب أكبر وأخطر ، إنه زوج خالتها المحرم عليها والمحرمة هي كأمه كأخته كخالته. الرعب أن يسجل رجل لنفسه – أي رجل – مهما كان سيء السمعة والأخلاق مثله ، أن يفكر مجرد تفكير في الشيء الذي لم يفكر فيه لحظتها وإنما كان يفعله) .

ونلاحظ أن القاص منذ بداية الرواية يحشد تلك الشخصية بكل تلك القيم والمبادئ الخلقية ، ويرفعها إلى مكان عال فوق الآخرين ، ويجعلها الضمير الحي اليقظ في المصلحة ، ليصل الأمر أن الكل يخشونها ، ويتجنبونها لا لشيء إلا لقوة الخير وإرادة البعد عن الانحراف والفساد والعيب ، وهو إذ يفعل هذا يبدأ في طريق مواز نسج الخط الدرامي لشخصيتها ، فهو لا يرتفع بها بكل ثقة واعتداد وفخر إلاَّ ليلقيها بلا رحمة إلى أسفل سافلين .

ولكن أهذا يتفق مع المنطق الذي يفرضه العمل الفني ، ويؤيده الحدث الدرامي ...هذا المنطق الذي سيتكشف بكل وضوح إذا ما سألنا أنفسنا :

لماذا نكصت (سناء) عن طريقها الذي كانت تسير فيه متحدية جماعة المكتب ؟

وما سبب سقوطها ؟ هل يفرضها العمل الروائي أم هو مقحم على العمل من القاص ؟

من الميسور على الإنسان أن يؤمن بجملة من المبادئ والقيم ، ولكن هذا الإيمان هشٌ ، ليس له جذور ، ما لم يكن محصلة تجربة مر بها الإنسان ، وكانت تلك التجربة تضع الإنسان بين خيارين ، وهذا الاختيار له مسئوليات لا مناص من تحملها ، فإذا ما سار في الطريق إلى آخره بأن اختار بين البدائل وتحمل نتيجة هذا الاختيار ، بنفس واعية

واقتناع كامل ، فقد ثبت للابتلاء ، وأيقن بأيمانه الراسخ وحلاوة ومتعة الإيمان بشيء لا تأتي إلا إذا نال الإنسان في سبيلها المشاق ، فهي تزيد من تمسكه بمبادئه التي يؤمن بها ، هذا التمسك مصدر المتعة التي يعيشها ، لأنه بهذا مع حقيقته وجوهره الذي خلقه الله عليه .

وقد كانت (سناء) تؤمن بتلك المبادئ التي تنأى بها عن الانخراط مع جماعة المكتب ...قد يكون موقف (سناء) هذا نوعا من الخوف ، وهي الخام التي لم تدر شيئا عن أساليب العمل في المصلحة ، إلى جانب أنها أنثى ، الخطأ عندها له صورته المكبرة ، المحاطة بهالة من التحريم والعيب ، أو نوعًا من الترفع عن الخطأ ليس إلاَّ ، فهي ليست في حاجة أن تضع نفسها في موقف محاط بالشبهات ، وهي في غنى عما سوف تأخذه من ذلك ، أو تريد أن يكون لها ما يميزها عن جماعة المصلحة ، وهذا يخلق لها نوعا من التفرد ، أما أن نقول أن إيمانها بقيمها هو الذي منعها من أن تسير مع تيار موظفي المكتب ، فهذا ما نستطيع أن نجزم به .

ولكي نقف على حقيقة ودوافع الشخصية ، الأمر في حاجة إلى ابتلاء أو صراع أو شد وجذب ، وموقف حرج تكون فيه الشخصية ، ومن خلال تصرفها تتكشف دوافع ونوازع تلك الشخصية .

٣ -الصراع:

قضت (سناء) ليلة ليلاء حينما لم تستطع أن تدبر مصاريف مدرسة أخيها (أسامة) والتي بدونها لن يستطيع أن يدخل الامتحان ، ولا نستطيع – من خلال الأحداث – أن نقول أن بالقصة صراع ما ، فهو ليس موجودًا ، والشخصية لم تتعرض له ، فقد آثرت الشخصية من أول لحظة أن تتخلص وتتخلى عما كانت تؤمن به ، في سبيل أن توفر مصاريف أخيها (١٠٢) :

(يومها كانت مستعدة أن تقتل أو تسرق أو تصنع أي شيء في سبيل أن تحصل لأخيها على قيمة القسط فليلة الأمس بكى لأول مرة تراه منذ أن كبر يبكي كما كان يفعل وهو طفل . كانت تتناقش مع أمها في كيفية الحصول على النقود ، وطرقا بنقاشهما كل الأبواب والاحتمالات دون جدوى ، حتى بات واضحًا أن النقود لن تأتيهم إلاَّ إذا فتح الله سبحانه سقف حجرتهم وأسقط لهم من خلاله قيمة القسط . وكان النقاش قد استغرقها إلى درجة نسيا معها أن أسامة موجود بجوارهما ، ولم يفطنا لوجوده ، إلا حين سمعتا بكاءه ، والتفتا لتجدا دموعه تلمع بكثرة ، فوق وجهه ، وخيبة الأمل مرتسمة بصورة واضحة تنطقها رغم طفولتها الخرساء ملامحه ،

ولحظتها صدر عن كل ذرة من كيانها قسم تلقائي مفاجئ غير منطوق ودون أن تعي أو تريد ، قسم أنها لابد واجدة حلا ...لابد صانعة المستحيل وما هو أكثر منه كي لا يذرف أسامة دمعة أخرى ، أو ترسم على وجهه هذه الصورة الخرساء لخيبة الأمل) .

لقد انتهى الصراع قبل أن يبدأ ، بتخلي الشخصية عن كل ما تؤمن به من أول اختبار ، فقد كانت تظن أن الإيمان بقيمة بمثابة حلية تتحلى بها ، كأسورة أو خاتم بدون أن تعاني أو تقاسي؛ فقد بحثت وسألت كل من تقابله كي تسدد قسط المدرسة ، ولكنها لم تجد فلا زميلتها (نور) ولا الباش كاتب ، ووجدت كل الأبواب قد سُدت في وجهها ولم يستطع أسامة دخول الامتحان، ووجدت مشكلة أخرى بعد تغيبها عن عملها دون إذن ، فقد آلت على نفسها أن ترفه عن (أسامة) بعد اليوم العصيب الذي مر به ، ولكي تأتي بشهادة من طبيب ليحتسب اليوم أجازة يلزمها خمسون قرشا ، وظلت تلح على زميلتها حتى استطاعت أن تظفر بالخمسين قرشا وبالشهادة .

لقد قتل الموقف الذي مرت به كل نوازع الخير في نفسها ، وتخلت عن كل ما كانت تتمسك به من قيم ومبادئ ، فلم تصمد للتجربة ولم تعاند ولم تتحد ، وإنما انهارت من أول ضربة وُجهت إليها ، وبدأت تتبنى أفكارًا وقيمًا مغايرة لما كانت تؤمن به ، (١١١) : (أفاقت لتجد نوعا من عدم المبالاة ، قد أصبح يصبغ تفكيرها وأرائها وتصرفاتها وكانت اللحظة الصاعقة التي عانت فيها من الشعور بأنها مبعدة منبوذة قد جعلتها هي الأخرى تبدأ تنبذ الناس في تفكيرها وتصرفاتها ، لم يعد مهما ان تظفر برضائهم عنها ، وبين يوم وليلة ملأها الشعور بأنها لا تملك في هذه الدنيا ولا يجب عليها أن تراعي سوى نفسها ، شعور لم يكن عميقا خافيا ، لقد ظهر حتى لزميلاتها ولاحظوه واتخذوه مادة لتعليقاتهم).

فالمواقف وحدها والتجارب هي التي تظهر حقيقة الشخصية ، وقد خرجت (سناء) من هذه التجربة بنتيجة أن نظافتها لم تتحمل ثمنها ، ولكن أخاها هو الذي تحمل تلك النتيجة ، وبدأت تؤمن بمبدأ غريب ، مبدأ الباش كاتب التي كانت تستنكره ،منطق تبرير الخطأ والانحراف ، بالحجة الباطلة ، حجة التضحية بالنفس من أجل الآخرين ، وكأن انحرافه وقبوله الرشوة سيعود بالنفع والخير على الآخرين ، فهذا منطق معكوس تتبناه الشخصية للتوافق مع الواقع الفاسد ، وتظن أن بتبنيها إياه ستعقد مصالحة بينها وبين واقعها التي لم تستطع أن تعارضه أو تتمرد عليه .

في صفحة (١٢٣) : (إن ما يحدث لأسامة والاضطراب الخطير الذي اجتاح حياته بعد حرمانه من الامتحان هو الثمن (لنظافتها) ثمن لم تدفعه هي ولكن تحمله وسحق به هذا الصبي ، الذي لا ذنب له ، إنه كالنبات النامي لابد له من الحصول على الماء والغذاء ، وإلا هلك ، ولابد لأهله أن يوفروا له هذا وبأي ثمن ، وبأي وسيلة ،لا يهمه أبدا نوع المصدر ، ترى هل يغفر لها الآن أو حين يكبر وهي المسئولة عنه وعن عائلتها الصغيرة – إنها جعلته يقاسي من ضربة معطلة قاصمة ، فقط لتظل في نظر نفسها وفي نظر الناس محترمة نظيفة ؟ إنها تعرف أباء وأمهات يحللون الحرام ليوفروا لأولادهم الغذاء والكساء ، (محمد الجندي) في كل قذارته لا يفعل أكثر من أن يوفر للجيش الجرار الذي أوجده على سطح الأرض حاجته بمعنى آخر هو يضحي بذاته ويلوثها لينقذ أولاده ، أيها إذن أكثر نظافة ؟

لقد أمضت ساعات الصباح تعطي الجندي دروسا في النظافة والصواب والخطأ ، لماذا لا تواجه نفسها الآن كما واجهته وتعترف بالمعنى الحقيقي لما فعلته ؟ أليس معناه الحقيقي أنها كانت أنانية إلى درجة دفعتها للتمسك بذاتها وقيمها حتى ولو أدى الأمر إلى تشريد أخيها الصغير وأبنها وحبيبها الوحيد ؟ وأليس معناه الحقيقي أيضا أن (محمد الجندي) أقل منها أنانية بل هو ملاك إذا قيس بها ، مسيح صحى بذاته ولوثها ومرمطها من أجل أن ينشأ أبناؤه الذين يحبهم نظافا صالحين) شيئان يدفعان الإنسان دفعا أن يستحل الحرام ، أولهما : قسوة الواقع . وثانيهما : الآخرون الذين تربطهم به علاقات وطيدة .

فالإنسان لا قبل له بأن يتحمل واقعًا قاسيًا ، فهو يسعى إلى تغييره بأي طريقة شرعية أم غير شرعية ، فإذا كان المجتمع ونظامه على صواب ، سلك الإنسان الطرق الشرعية لتغيير واقعه ، أما إن لم يكن على صواب وفُرض على الإنسان فرضا بكل عيوبه ونقائصه ، فقد يسلك طريقا آخر مضادا للنظام ، ويكون ذلك على هيئة ثورة أو تمرد ، وإن لم يكن فليس ثمة إلا الانحراف والإفساد واصطناع كل السبل والحيل للحصول على المال، والذي يدفع الإنسان إلى هذا ليس رغبة داخله ، فداخله نقي متمسك بالقيم والمبادئ ، ولكن الدافع خارجي متمثل في أن هناك أخا وزوجة وأولاد بحيث لو أُبعد عن تلك المؤثرات لأنعدم الدافع ولأنعدم الانحراف ولبقى الإنسان على صلاحه ونقائه؛ فكل شخصيات الرواية مدفوعة بدافع خارجي لخرق القانون وارتكاب العيب ، الباش كاتب من أجل الأولاد وزوجه ، لأنه لا يستطيع أن يوفر لهم ما يحتاجونه ، حتى (محمد الجندي) الذي كان يجد متعة كبيرة في خرق القانون – أي قانون – يفعل هذا تحت دافع خارجي متمثل في قسوة والده في تربيته (١١٩) :

(طوال عمره ومنذ أن كف أبوه عن ضربه وعقابه وصب الأوامر والنصائح كالزيت المغلي فوق رأسه ، منذ أن مات كأنما عاهد نفسه بعدها ألاَّ يستمع لنصح أحد سواء أكان مخطئا أم مصيبا ، وسواء أكانت النصيحة من عاقل أو أحمق بل لقد جعل شعاره بوعي منه أو بغير وعي ،أن يخالف كل ما يقال له من نصائح وهوايته الكبرى أن يعصي القوانين ، إن القانون يظل عدوه اللدود إلى أن ينجح في خرقه ، التعليمات تظل شيئا لا يطاق إلى أن ينجح في العثور على وسيلة يستطيع أن يتحايل بها عليها وليس فقط القوانين واللوائح المكتوبة أكثر من هذا وأبعد ، كل ما يأخذ شكل القانون إذا تصادف ووجد ، رخام القيشاني في أي دورة مياه يدخلها لامعا نظيفا أنيقا لا يستريح إلاَّ إذا أخرج قلمه الكوبيا وشخبط حتى يشوه المنظر . إذا جلس على مقعد عربة الأتوبيس سرعان ما يخرج سلسلة مفاتيحه وبها المطواة الصغيرة ذات السلاح الحاد الذي يفتحه ويعمله في جلد الكرسي وفي تخف شديد يقطعه حتى يطل القطن ويعمله في الجوانب حتى يظهر معدنها . وإذا أردت أن يكرهك كره العمى فانصحه نصيحة) .

وإذا كان الإنسان يرتكب ما يرتكبه من أجل الآخرين ، فهو في نفس الوقت يرتكب في حقهم أكبر الخطأ بما استحله اليوم لظروف قاهرة ودوافع مجبرة ، واضعًا ما يشاء من تبريرات عقلية ، فإن ابنه أو حفيده مستقبلاً سيرتكب نفس الفعل الخطأ بدون أن تكون هناك دوافع وبدون أن يكون في حاجة إلى تبريرات لأنه سينظر إلى الفعل مجردًا عن ملابساته المختلفة.

فالإنسان لا يرث عن والديه مالا فقط نبل يرث أيضا خلقا وقيما ومبادئ :(١٣٤) (أفكار تطرق عقلها وتقلب تفكيرها رأسا على عقب ، وتجعلها تغوص وتغوص في التأمل على هدى هذه الخواطر ، إننا حلقة واحدة من سلسلة طويلة نصل فيها بين أبائنا وأجدادنا وبين أبنائنا وأحفادنا ، ونفعل هذا رغمًا لأنه وضع لم نستشر فيه ، فقد خلقنا بما ورثناه عن أبائنا وأجدادنا من علامات وبما سنورثه لأبنائنا وأحفادنا . من أجل هذا نحن لا نملك أن نفكر في أنفسنا كأنفسنا فقط ن وغنما علينا أن نفكر فيها باعتبارها جزءًا من سلسلة وهمزة الوصل بين جيل مضى وجيل مقبل ، بحيث نعي أن القرار الذي نتخذه لا يخصنا وحدنا ولكنه سيؤثر أعمق التأثير في حلقات السلسة من بعدنا . وأولئك الذين يفكرون في أنفسهم (كأحرار) (كان موجود) (كان البداية والنهاية) أناس مخرفون يتجاهلون ألف باء الوجود الإنساني ، بمعنى أدق يقطعون بهذا النوع من التفكير أنفسهم من سلسلة البشر يصبحون كالسيقان والأذرع المبتورة عمرها محدد بعمر خلاياها في حين وهو أعضاء ومكونات في السلالة البشرية عمرهم يبدأ قبل مولدهم بملايين

السنين هي عمر البشرية قبل وجودهم ، وعمرهم يظل ممتدًا بعد موتهم بملايين السنين هي عمر البشرية من بعدهم . من المهم إذن أن نتحدث عن أنفسنا وقيمنا والحرام والحلال والعيب واللا عيب بالنسبة إلينا ، أن نضع في اعتبارنا أنها ستكون كذلك أيضا بالنسبة لأبنائنا ومن بعدهم بالنسبة لأحفادنا) .

فالخطأ الذي يرتكبه إنسان ما لا يحيق بوحدة ، وإنما يشمله ويشمل الآخرين فنتيجة الخطأ هنا مزدوجة ولكن هل سقطت (سناء) من أجل أخيها حقا ؟ وهل يسقط الإنسان في العادة من أجل الآخرين ؟ لا ، فالإنسان أكثر أنانية من ذلك فالأمر واضح وحاسم وقاطع فإذا أصاب الإنسان فمن أجل نفسه ، كذلك إذا أخطأ فمن أجل نفسه أيضا ، و(سناء) لم تسقط من أجل (أسامة) كما تقول :

(الآن وفي المساء وبعد أن احتضنت (أسامة) وشعرت بجسده الصغير الدافئ كتلة حية مجسدة وملموسة بدأ الشك يتسرب إلى إيمانها ذاك ، ولم تعد واثقة كل الثقة أنها الأحسن والأنظف والأكثر شرفًا وسموًا) .

هي لم ترث لأسامة ، وإنما رثت لنفسها وارتكبت ما ارتكبته لنفسها فحسب ولكن الإنسان لا يستطيع أن يواجه نفسه بالحقيقة ، وإنما يرى الحقيقة متوارية في ذوات الآخرين ن فهي لا يعنيها (أسامة) وإنما تعنيها ذاتها ، كيف لم تستطع أن توفر ما يحتاجه (أسامة) الآخر المتعلق بذاتها ، بغض النظر عن الآخرين بدليل أنها كانت تريد أشياء كأي فتاة في مثل سنها ، والحصول على تلك الأشياء لا يتم إلاَّ بطريق ملتو لا تستطيع أن تسلكه صراحة .أو قل أن احتياجها لمثل تلك الأشياء والإحساس بها كان مؤجلاً ، أو لم تعطه البعد الحقيقي لعدم تحقق الذات ، فكيف تلبي احتياجات ذات لم تتحقق بعد ؟

وما حدث لأسامة ، أعطى لذاتها صورتها الحقيقية من عدم تحقق وحرمان وهاهو الموقف كما لم تستطع سناء أن تواجهه وآثرت تأجيله أو رفعه من تفكيرها : (ورأسها الصغير رغم شعرها الناعم الغزير ملئ بالأحلام أيضا ن باقتناء الملابس الفاخرة الأنيقة بحياة الثروة والغنى ، بالطموح -أحلام تتغير هي الأخرى وتتجدد إذ بينما كانت تحلم في العام الماضي بجوانتي من الجلد الفاخر المبطن بالفرو في هذا العام هي تحلم بأن تبلغ في وظيفتها شأوا ومرتبا تستطيع أن تدفع منه أقساط عربة نصر ١١٠٠وتسوقها وحدها وتفسح أمها وتذهلها بها).

قد تقول أنها أحلام ومطامح ، ولكن لا سبيل إلى تحقيقها بالطريق السوى قط ، ووجدت (أسامة) لتعلق عليه سبب سقوطها ، كما علقت (عزيزة) سقوطها على جذر البطاطا في رواية (الحرام) . ويتضح ذلك من خلال موقف سناء بعدما عرض (عبادة بك) عليها رشوة ، وكان التغيير الذي طرأ على سناء هائلا ، فليست هي التي رفضت من قبل قبول الرشوة بكل إباء وتصميم ن فبعد حدوث ما حدث أيقنت إيقانا كاملاً بحاجتها إلى المال ، بأي طريقة ، فكل إنسان في حاجة إلى تحقيق ذاته ، وهذا دافع طبيعي ، ووجدت (سناء) أن طريقتها في تحقيق الذات لم يزدها إلاَّ شحوبًا وذبولاً ، وشعرت بنفسها منبوذة ، ملعونة من جماعة المكتب ، ليس أمام جماعة المكتب فقط ، بل أمام أخيها ، ومن قبل أمام نفسها ، إذن فهي على خطأ ألاَّ تسير مع التيار ، واستبدلت الخطأ بالصواب :(١٣٦)

(كان التساؤل هو ... ماذا يحدث لو أخذتها ؟ تساؤل هكذا يلقي ويعود يلقي دون أن تنتظر إجابة عليه . ماذا يحدث لو أخذتها ؟

ماذا يحدث ؟ ماذا يحدث ؟

كل ما كانت تريده هو مهملة خاطفة تستطيع بطريقة ما أن توقف هذا التساؤل المتواصل المزعج وتفكر فيها ، ولكن بدا وكأن عقلها نفسه لا يريد هذه المهلة ولا يريد أن يفكر ويريدها أن تتصرف بوحي من غرائزها البدائية الأولى الغرائز التي تنجذب إلى الدفء والنور وتنفر من الأشياء لا بحسب قيمها الظاهرة المحسوسة ومعانيها التي تتلخص في معنيين اثنين ...أهذا الشيء يضر جسدي حتى أهرب منه أم يفيده حتى أحصل عليه) .

أما وقد تركت الأمر للغرائز البدائية المنفلتة من كل قيود القيم ، فقد انقلبت إلى إنسان شره نهم لا يعنيه سوى ما يحصل عليه بأي طريقة وبأي أسلوب (١٣٧) : وبحكم هذه الغرائز لو كان لص دخل الحجرة في ذلك الوقت لاستماتت سناء دفاعا عن الرزمة بحكمها كانت قد أصبحت ملكها وبحكمها أيضا قد أصبحت المشكلة لا أن تأخذها أولا تأخذها وإنما هي كيف تدافع عنها وتمنعها من التسرب من حوزتها

وهكذا تخلت الشخصية عن كل قيمها وكل مبادئها بقبولها الرشوة من (عبادة بك) وقد أهمت نفسها أنها لا ترتكب خطأ ، واضعة تلك الأسوار حول ذاتها كي تدافع عنها ، إذا ما خالجها شك أنها مدانة ، فكل ما تفعله من استخراج تصاريح الاستيراد لعبادة بك هو من صميم عملها ليس إلاَّ ... فقد استشارت الباش كاتب وأشار عليها بملء خانات التصاريح وها هي تؤدي عملها (١١٤) : (هل حدث أن تحرك موظف أو موظفة واضعا بيع ذمته كهدف ؟ على الإطلاق لم يحدث شيء من هذا . إنه دائما يتحرك موهما نفسه مؤكدا ومقسما ومؤمنا إيمانا لا يتزعزع إنه إذا يتحرك

فإنما ليؤدي واجبه فقط لينجز عمله عسكري المرور الذي يقبل القروش العشرة حتى لا يحرر لك محضرًا يوهم نفسه بأدلة يضعها أو يصطنعها أنك فعلا لا تستحق المحضر وأنه بإلغائه إنما يؤدي واجبه الذي يمليه عليه ضميره ، وما العشرة القروش سوى مبلغ تطوعت أنت بدفعه سذاجة منك وعبطا ، إذ كان هو على أي الحالات لا ينوي تحرير المحضر) .

موقف يغالط الإنسان فيه نفسه ، ذلك لأنه ليس له قدرة على ارتكاب الخطأ ن وليس لديه قوة على اجتنابه ، ولا يفعل شيئا إلا بعد الاقتناع به ، وهو إذا اقتنع فقد أزال كل الحواجز والعقبات من قيم ومبادئ ، وإذا ما فعله فهو في حاجة إلى الدفاع عن نفسه

وبذلك يستبدل الصواب بالخطأ، وتنقلب المعايير وهو في ذلك يمر بأربع مراحل :

١-وضع تبرير للانحراف

٢- الاقتناع به .

٣- فعله .

٤-الدفاع عنه .

ويفعل الإنسان بعد ذلك ما يفعله بنفس راضية وعقل مقتنع وضمير مستقر وكما يقول (عبادة بك) وهو في طريق نجاحه في إغراء (سناء) بقبول الرشوة : (١٤٥) :

(علامة يعرفها جيدًا إذا الخبرة قد علمته أن الشخص يبدأ في إقناع نفسه أن فعله أمر لا غبار عليه يكون فعلاً وحقيقة قد بدأ يدافع عن الشيء الذي عليه غبار مؤكدًا لنفسه أن لا غبار عليه البتة) .

والسقوط هنا ليس محدود بمكان ، ولكنه سقوط أبدي يلازم الشخص مدى الحياة ، فقد تخلى عن قيمه وبتخليه هذا عن نفسه ، فهو لن يبع التصاريح ، وإنما باع نفسه ولن يقبض ثمن نفسه ، وعبادة بك كان يدرك هذا ، لذلك نجح نجاحا منقطع النظير في إغراء سناء . (١٤٦) : (..هنا لا يعني قيمة ما يستحقه الشخص ، ولكنه يعني على وجه الدقة قيمة ما يطرح هو في الحصول عليه ،أي بمعنى آخر قيمة ثمنه في نفسه وعليك أنت أن تثمنه بأغلى بكثير مما توقع أو يستحق ، ولا تخشى الخسارة أو بعثرة نقودك فأنت لا تشتري إمضاء لمرة ...أنت تشتري شخصا بأكمله ووظيفته ونفوذا إلى زمن لا نهاية له) .

وإذا كانت ضريبة النظافة والتمسك بالضمير التي دفعتها (سناء) هي شعورها بالوحدة داخل إطار مجموعة المكتب وأنها منبوذة وملعونة ، وكأنها كائن غريب وسط قوة لا تفهمهم ولا يفهمونها وتخليهم عنها وقت حاجتها إليهم ، فقد كانت هناك مكافأة تنتظرها سناء على بيعها ضميرها وتخليها عن قيمها وقبولها الرشوة من جماعة المكتب .(١٠١) : (وجدت سر صفقة الخميس قد تسربت إلى الزملاء والأعزاء من الباشكاتب من خفاجة أومن عبادة نفسه ، تفصيل لا يهمها في قليل أو كثير والغريب أنها بعد برهة وجدت نفسها غير ساخطة ، أكثر من هذا سعيدة ، بهذا التسرب لكان حائطًا سميكًا كان يفصلها عن سليمان وأحمد والباش كاتب والجندي قد تهدم من أساسه .

ولم يسخر منها أحد ، ولم يحاول أحد أن يعايرها ، بالعكس أقبل الجميع عليها ، وكأنها نجحت في امتحان وانتقلت إلى خانتهم ، أو لكأنها الأخت المريضة التي عُوفيت وشُفيت وأنضمت إلى العائلة والتحفظ زال والحرص في المعاملة اختفى والحجرة تحولت إلى مكان عذب خفيف الروح يغري بالإقامة) .

وكأن هناك قانون يحكم تلك الجماعة ،أو من المحتمل أن يكون نفس القانون الذي يحكم أي مجتمع من المجتمعات ، قانون يعاقب المحسن ويثيب المسئ ، فهرم الأخلاق هنا مقلوب ، الشرف والأمانة والضمير ، كل تلك القيم مدانة ، أما ما يناقضها فهي المعترف بها ، والسائرة في عرف تلك الجماعة ، فقد باركت وكافأت الجماعة (سقوط) سناء بعد ساعات على ذلك السقوط ، وسعدت وأسعدنها حينما باعت قيمها ، بل باعت نفسها .

٤-إعادة التشكيل:

موضوع القصة محفوف بالصراع والشد والجذب ، فهو صراع على القيم والمبادئ ، وصراع القيم والمبادئ أشد أحمى من صراع الأسلحة ، فقد يخرج الإنسان من معركة الأسلحة مجروحا ثم تتكفل الأيام بتضميد جراحه ، أو يقتل أثناء المعركة وينتهي الأمر ، أما صراع القيم فقد يُذبح الإنسانُ ويسيل منه الدم وهو حي ينام ويستيقظ ويأكل ويشرب ومع ذلك فهو مذبوح ؛ لأن قيمه قد انتهكت ، والقيمة لا تتحدد بمعيار السلوك الفردي أو الجماعي فحسب ، بل لجيل أو أجيال كثيرة ومن الصعب محوها ، كما أن من العسير نشرها ، فهي حرب ضروس لا هوادة فيها . والمر على هذه الصورة ، أما كان من الأجدر للقاص أن يجعل شخصيته الرئيسية رجلا بدلا من امرأة ؟ فالمرأة ليس لها قدرة على الصراع والعراك والخصام . فالوضع الصحيح أن تكون الشخصية رجلاً قادرًا جلدًا على الصراع ... أما أن تكون

الشخصية امرأة فهناك مغزى وهدف يقصده القاص من وراء ذلك القاص لا يريد أن يعطي الصورة الحقيقة لجزئيات الواقع المعاش ، فهذا نوع من التسجيل (الفوتوغرافي) ، ليس وراءه طائل ، فمهمته أن يعيد تشكيل الواقع ليخلق في نفس القارئ موقفا منه؛ فالعادة والإلف للواقع يخلق نوعا من الاستئناس أو المعايشة في وئام بين الإنسان وواقعه ، وتأتي هنا مهمة القاص ، وهي صدع هذا الإلف والاستئناس حتى يرى واقعه بدون زيف ،وبعد ذلك يكون للقارئ موقف أما بالرفض أو التغيير أو التمرد؛فقد أراد القاص أن بشع صورة الرشوة ، ويعطي لمعنى الرشوة نوعا من التكثيف ن لتكون الجرعة مركزة تركيزا يدفع القارئ لجهة من الجهات ، فالنافذة التي اطل منها على الواقع الفاسد امرأة ، ومن عادة المرأة أن لا ترى النسب الحقيقية للأشياء ، وإنما تضخمها ، ولا ترى الحرام أو العيب شيئين من لوازم الواقع ، وإنما تواجهما في صورة أشنع وأكبر ، فتلك الأشياء لا تمس كرامتها أو سمعتها فحسب ، بل تمس شرفها ، كامرأة ، تلك المنطقة التي تهون الحياة وتهون المرأة إذا هانت ، وهذا ما شعرت به (سناء) حينما أراد (الجندي) أن يشركها معه في بيع التصاريح ، (٦٢) (الإهانة الحقيقة أنه لابد قد وضع في اعتباره وهو يرسم خطته احتمالا شبه أكيد أنها من الممكن أن توافق الإهانة الحقيقية هو ظنه شيئا لهذا فيها ، وليست إهانة لشرفها فقط وكرامتها ، وإنما الإهانة العميقة هي أن هذا كله وُجه إليها من رجل ، الإهانة الأعمق والأخطر إنها فتاة – أنثى – وأن رجلا هو الذي ظن فيها هذا الظن ، وعوملت بتلك الطريقة بما جرحت هذا الجرح العميق ، لاعترفت أن ما حدث سبة أو تهمة عادية وجهت إليها إلى شرفها ، هي في الحقيقة إهانة لأنوثتها ، لشرفها ككاتبة أو كفتاة تعمل . إهانة ليس ردها الصفع أو الركل وكيل أقبح الألفاظ ، فمهينها رجل ... الرجل لا يهمه أن يُسب أو يُشتم أو شخصيته أو مكانته ولكنها أبدا لا تخدش شرفه ولا تجرحه هذا الجرح الغائر الدامي ، ماذا تفعل وهي تحس بشرفها الأنثوي مهانا ومجروحا ، وهي عاجزة حتى عن الرد كرجل أمام رجل ؟ عن السب حتى أو الصفع ؟ أهناك ما يقتل من الغيظ أكثر من أن تجد نفسها في موقف المعتدي على شرفها ، والعاجزة في نفس الوقت عن رده ؟ بكاؤها الشيء الوحيد الذي أفلت منها يكاد يعميها ، فرد الإهانة التي تلحق بالشرف ردها بمجرد البكاء إهانة في حد ذاته ، إهانة صادرة منها هي ، وأي مأساة أن ترد عدوان غيرك عليك وإهانته لك بأن تتولى أنت الآخر إهانة نفسك أمامه . أي عار)؛ فهي في دفاعها عن قيمها

ومبادئها لا تدافع عن أشياء خارجة عن ذاتها أو عن أسماء أو عناوين وإنما تدافع عن شرفها ، الذي يقرر أن تكون أو لا تكون تدافع عن وجودها ، والقاص يريد أن يساوي بين القيم والمبادئ والشرف بعينه فقد يتغاضى الإنسان عن أي وكل إهانة إلا تلك التي تمس شرفه وعرضه

وعرف (عبادة بك) أن من الصعب شراء المرأة ، بينما من الميسور شراء الرجل (١٤٠) : (وقد علمته الأيام والتجارب أن النساء أصعب في بيع ذممهن بعشرات ومئات المرات من الرجال ، بل المرة الوحيدة التي فشل فيها وخاب كانت أمام إحدى الموظفات الكبيرات)؛ فالأمر مع المرأة غاية في العسر ، فليس لديهن الجراة ولا الشجاعة ولا التبرير الوجود عند الرجل ، فإذا كان الرجل بقادر على ارتكاب الخطأ وهو في نفس الوقت معتقد بتحريمه وتجريمه ، تلك القدرة ليست عن المرأة ، فهي ليست بمرونة الرجولة تماثله في القدرة على الانسلال من بين حواجز القانون والقيم ، (١٤١) : (شخصيات هؤلاء الفتيات المتماسكة المترابطة ككتلة واحدة تضم قيمهن جميعا ... وكلها قيم متحدة واحدة الحرام فيها حرام تحت مختلف الظروف والأحوال والحلال أيضا واحد والعيب في العمل مثله مثل العيب في الشرف وما يعيب في البيت يعيب أيضا في المصلحة . كتلة مترابطة واحدة ففرق كبير بينها وبين قيم الرجال الموزعة على أدراج ودوسيهات . بحيث يحيا الرجل صادقا بأكثر من مقياس وأكثر من شرف وأكثر من حلال أو حرام ويستدعي – إذا اضطرته الحاجة المقياس الذي يناسبها) .

تلك الفروق بين الرجل والمرأة ، وإن كانت في صالح المرأة إلاَّ أنها فروق ليست إيجابية بالمرة ، فهي لم تدفع الشخصية الصالحة (سناء) أن تأخذ موقفا ضد جماعة المكتب ، لذلك لم تصمد الشخصية للصراع.

الفصــل الثاني :
الحـــرام

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام .

المحور الثاني : واقع عزيزة .

المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ، ومن عزيزة بصفة خاصة .

إذا كان "يوسف إدريس" قد وضع شخصيته في رواية (العيب) على قمة عالية من خلال تمسكها بالقيم والمبادئ ، ثم أخذت تهوي بتخليها على قيمها ، فإنه عكس الوضع في رواية (الحرام) ، بدأ بالشخصية في الدرك الأسفل من هوة الحرام ثم بدأ يصعد بها على درجات التطهر والتفكير والندم حتى وصلت بعد ذلك إلى مقام عظيم بالنسبة لأهل التفتيش.

ويوسف إدريس شغوف بهذا (التناقض) أو الأسلوب فبروايته وقصصه وبالأخص عكس وضع الجماعة مع الشخصية ، فهما دائما على طرفي نقيض فجماعة المكتب التي تبع التصاريح تحاول أن تجذب (سناء) لتسير في تيار قبول الرشوة ، وأهل التفتيش يبحثون عن تلك التي ارتكبت الجريمة التي روعت العزبة وما يجاورها من عزب .

وتبدأ الرواية حينما عثر الخفير (عبد المطلب محمد البحراوي) على الجنين أسفل شجرة الجميز ذات صباح ، وأيقن الجميع بعد ذلك أنه ابن حرام ، وإلاَّ لما أُلقي هكذا ؟! وكان لأهل التفتيش موقف متميز إزاء تلك الجريمة ، هذه الموقف مر بعدة مراحل :

إنكارها وعدم تصديقها .

الاعتراف بوقوعها .

البحث عن الجانية .

ومعنى أن ينكر أهل التفتيش الواقعة ، يدل دلالة واضحة على غرابتها وعدم إلف المجتمع لمثل هذا الحدث ، هذا المجتمع الذي يعتد بتلك القيم المستمدة من الأرض ، والتي تحكمه من آلاف السنين ، فهي – الجريمة – شيء غير مألوف بالمرة ، مقحم على عقل تلك الجماعة ، حتى (فكري أفندي) المأمور لم يصدق وجود مثل تلك الجريمة ، وفي هذا المكان بالذات ، من خلال منولوج يدور بينه وبين نفسه (١٤).

(ترى أيهن هي التي فعلت هذه الفعلة ؟ وترى كيف فعلتها ؟ فكري أفندي طالما سمع في القصص والحواديت عن أولاد الحرام وأحيانا كانت تبلغه فضائح مثل هذه كأخبار ليست إلاَّ عن أناس لا يعرفهم ولا يدري أشكالهم ولا ماذا يكونون وفي أعمق أغواره ، وحتى لو كان قرأ الخبر في جريدة المقطم نفسها التي يؤمن بكل كلمة تقولها ، فإنه كان يجد نفسه لا يكاد يصدق الخبر ، لا يكاد يصدق أن أحداثا كبيرة شنعاء حرامًا مثل هتك العرض أو الحمل سفاحا ممكن أن تحدث فعلا) .

في المجتمعات الفقيرة التي تعاني من قسوة واقعها المرير ، ولا تملك شيئا لتقف به أمام أنياب وأظافر ذلك الواقع ن يكون تقديرها للقيم تقديرًا عظيمًا فهي – القيم – الحصن الذي يعتصم به الأفراد من أن تنتهك آدميتهم ، فلا مال ولا سلطان ولا نفوذ ، والحامي الوحيد هي القيمة ، والارتفاع بها وإعطائها نوعا من السلطان والنفوذ يحمي الآخرين منك ، ويحميك من الآخرين ، ولا يقلب هذا المجتمع رأسا على عقب من أن يُرى جدران القيم مصدوعًا ذات صباح ، وتبدأ سهام الشك الحادة وطلقات الاتهام المدوية ن تصيب كل إنسان ، وكل فرد يريد أن يخترق الآخرين ، ليصل إلى أعماق أدمغتهم وصميم أنفسهم ليرى ويقيم شكه واتهامه على أساس . وكان الغرابوة مستهدفين للاتهام والشك ولم يكن هناك أفضل من هذا (الاستهداف) ليعري القاص واقع الغرابوة بكل عمق وجرأة تعرية لا تدع خافية إلاَّ وعرضتها للظهور المبين .

ورفض تصديق هذه الجريمة يخفي وراءه رصيدًا هائلاً من القيم التي تحكم المجتمع ، ليس فقط تمنع حدوث الحرام ، بل تمنع الذهن أن يفكر في احتمالية وقوعه ، حتى ولو وقع فموقف المجتمع منها يمنع أن تظهر إلى الوجود الاجتماعي وتعلن على الملأ ، فالمجتمع فبإنكاره هذا يدفع الفاعل إلى الاستتار بأي سبيل من السبل .

أما ما حدث ذلك الصباح تحت شجرة الجميز فهو يؤكد على أمرين :

الأول : وجود الحرام .

الثاني : هذا الوجود معلن عنه ويتحدى إنكار الجميع .

فالمقولة التي تقول:(إذا أُبتليتم فاستتروا) تغلف موقف المجتمع من مثل تلك الأمور ، فهو ينكر وجودها أما إذا حدثت ووقعت فيجب ان تخفى ولا يعلن عنها لأن هذا الإعلان يخدش سلطة ونفوذ قيم المجتمع فلتحدث ، ولكن لا الفرد ولا المجتمع يعترف بها ؛ لأن الاعتراف مرحلة تالية عن الإعلان ، مثل الرشوة في قصة (العيب) فالرشوة موجودة ولكن جماعة المكتب تواطئوا على إخفائها عن الأعين ، لأن المجتمع وقيمه ينكرونها ، هذا الإنكار أثر على الفرد وجعله يمارسها في نفس الوقت الذي يعتقد بحرمانيتها ، ولكن من قال أن ما يرتكبونه رشوة ؟! ليس رشوة – في رأيهم – فالرشوة

هي التي يضبطها القانون ، ويطلق عليها هذا الاسم ، أما ما يمارسه (الجندي) والآخرون ، فليس برشوة لأن القانون لم يضبطهم متلبسين .

فهناك مستويان للقيم :

المستوى الأول: أن يقر المجتمع قيمة ، ويمنع أن تنتهك وبالتالي الإعلام عن الانتهاك ممنوع ،وإن حدث فهو يقابل بالاستهجان .

المستوى الثاني : أن يقر المجتمع قيمة ألاَّ يستطيع أن يحميها من أن تنتهك ، ولكن غاية ما يستطيعه منع المجاهرة بالانتهاك .

والضابط للمستوى الأول هو القانون .

أما الضابط للمستوى الثاني فهو العرف .

ولكن قد تنتهك قيمة في المستوى الأول ويعلم عنها أيضا : (١٤) : (الحرام إذن موجود لدى الناس أحيانا لا يستطيعون إخفائه ولكنه أحيانا يهزمهم وينتصر على رغبتهم في إخفائه يظهر متبلورا في لقيط مسجى أو في بطن منفوخ . الحرام الذي كنت تسمع عنه يا فكري أفندي ولا تصدقه موجود وأمامك الفرصة لترى فاعلته كما رأيته) .

والرواية من ناحية حوادثها تدور حول ثلاثة محاور :

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام ، وإنكارهم له ، ثم بحثهم عن الفاعلة ومحاولتهم إلقاء التهمة على الغرابوة لينفوا عن أنفسهم التهمة .

المحور الثاني : إلقاء الضوء على حياة (عزيزة) وواقعها المرير ، من زوج مريض مقعد وأولاده والحمل سفاحا من محمد بن قمرين وسفرها مع عمال الترحيلة ثم وضعها للجنين وقتله ومعرفة أهل التفتيش بحكاية (عزيزة) .

المحور الثالث : موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن عزيزة بصفة خاصة ، وما طرأ من تغيير ، من إزالة العداء ، وحل محله الرثاء والإشفاق الذي جر إلى التقارب بينهما ، وزالت تلك الصورة المقززة والمزرية للغرابوة وبدأ أهل التفتيش ينظرون إليهم نظرتهم إلى أنفسهم ، وأنهم آدميون من لحم ودم ، فما هي إلا الظروف والواقع المر الذي دفعهم إلى المجئ إلى التفتيش سعيا على الخبز الجاف والنزر اليسير من الرزق .

المحور الأول : موقف أهل التفتيش من الحرام

موقف أهل التفتيش من الواقعة غريب كل الغرابة ، فهم لا ينظرون إلى الحرام نظرة خارجية منعزلة عنهم ، ولكن ينظرون إلى دائرة الحرام وهم داخلها وكأن الواقعة وقعت داخل بيوتهم ، ومرتكبة الجرم هي الزوجة أو الأخت أو الابنة وهم إذ ينكرونه لا ينكرونه على الفاعل المجهول ، ولكن ينكرونه أن يصدر من بيوتهم فقد تصور (عبد المطلب) أن الفعالة زوجته مع استحالة وقوع هذا . (٧) :

(غير أن عبد المطلب لم يجر ، بل وجد نفسه بعد ثوان يقهقه قهقهة عالية أعلى من أيه قهقهة أخرى أطلقها في حياته ، إذ كان يضحك على نفسه فقد أدرك بطريقة ما أن ما أمامه ليس عفريتا أو شيئا من هذا القبيل ولكنه رضيع ابن حرام على وجه الدقة ، وما كاد يتبين هذا حتى قهقه فقد تصور لأمر ما أيضا أن الجنين الذي يراه الآن هو ثمرة الليلة الماضية التي قضاها مع زوجته وولدته بعد أن غادرها ليستحم في الترعة ويتطهر ثم ألقت به في الطريق) .

ولأن الكل ينظرون إلى الواقعة تلك النظرة الذاتية ، فالجميع أهمه البحث والعثور على الفاعلة ، ليس لمعاقبتها أو لشيء من هذا القبيل ، وإنما لتبرئة أهل بيته فعدم العثور على الفاعلة يجعل كل فتاة وكل امرأة هدفا للاتهام ، وبدأ البحث المسعور عن الفاعلة ، وألقى أهل التفتيش التهمة على الغرابوة ، وتزعمهم في هذا (فكري أفندي) المأمور ، فالواقعة غريبة ، إذن الفاعلة غريبة أيضا ، وليس من غريب إلاَّ الغرابوة ، (١٧) : (وأشار فكري أفندي فجأة بالخيزرانة التي كانت معه أشار إلى الفضاء الكائن خلف الاصطبلات وقال : لازم واحدة من دول .

واستراح أهل التفتيش لاتهام الغرابوة ، وإن كانت فكرة اتهام الغرابوة لم تنل من اهتمام (فكري أفندي) الكثير ، فهو لا ينظر إليهم نظرة آدمية بالمرة فهم – في نظره – كائنات غريبة لا تمت بصلة للآدمين ، فهم لا يستطيعون أن يخطئوا كما يخطأ الآدميون ، (٣٥) : (تعود فكري أفندي أن يراهم هكذا وهو صحيح قد افترض أن الفاعلة منهم ، قال هذا للناس وذهب بنفسه وبحث خلف الإصطبل ولكنه كان يفعل هذا وكأنه يفعله من وراء عقله ، فالواقع أنه بينه وبين نفسه لم يكن ليستطيع أن يتصور أن بين هذا القطيع البشري امرأة جديرة بصفة الأنثى .

كان متأكدًا أن الفاعلة منهم ومع هذا لم يكن ليصدق أن من الممكن أن توجد بين هذه المجموعة امرأة أو بنت تحمل وتلد حلالا كان أم لقيطا ، لم يكن ليصدق وكأن التي ولدت اللقيط لم تكن امرأة بل كانت رجلا ولم يسترح عقل فكري أفندي أبدا لهذا التصور فقد كان من العسير عليه أن يغير نظرته إلى الترحيلة في لحظة وكان من الصعب أن

يستحيل النفر منهم في خاطره إلى امرأة أو إلى بنت تنام مع الرجال وتحمل وتنجب أطفالا ، ولكن فكري أفندي كان من الصنف الذي لم يتعود قلقلة الحقائق في رأسه كثيرا قبل أن يصدقها).

ولم يسفر البحث عن شيء ، فقد خرجت نساء وبنات الغرابوة بريئات من هذا الفحص والكشف ، وإن كان الأمر قد انتهى من الغرابوة ، فقد ارتد ثانيا مع أهل التفتيش ، ومع شكهم في أنفسهم زاد إصرارهم على معرفة الفاعلة ، (٥٤) : (أما أهل التفتيش وأناسه وقاطنوه ، فالمسألة عندهم لم تمر هكذا بسهولة وكأنك القيت بحجر ضخم في ماء راكد آسن بدأت الاتهامات والشكوك تنهال من كل صوب ، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك مع علمهم التام أنهن جميعا بريئات ولكن لابد لكل خطيئة من خاطئة ولكل جريمة من فاعلة والجريمة قد عرفت ن ترى ومن تكون الفاعلة ؟؟) .

ولم يسلم أحد من الشك ، حتى (مسيحة) أفندي الباش كاتب بدأ يشك في ابنته (لندا) التي تبز في جمالها فتيات ونساء العزبة ، (٥٤) : (بل أكثر من هذا بدأ الشك يزحف من بيوت الفلاحين المنخفضة إلى بيوت الفلاحين العالية ، فبدأ الفار يلعب في عب مسيحة أفندي الباش كاتب ، وبدا يخاف أن يكون المحظور قد وقع والحقيقة أنه كان خائفا دائما أن يقع المحظور ن بل أكثر من هذا هو دائم الخوف من المحظور وغير المحظور) .

فهو يعرف بتلك العلاقة التي تربط ابنته بصفوت ابن المأمور ، ويعرف بحكاية الخطابات التي يحملها (محبوب) البوسطجي من وإلى لندا وصفوت ولا شيء في هذا ، لأن هذا يتم على مسمعه وعلمه وطالما يحدث هذا في العلن فلا خوف ، الخوف أن يكون حدث شيء في الظلام ، وفي الظلام لا يتورع الإنسان أن يرتكب أكبر الكبائر ، أما في العلن فهو على رقابة من المجتمع ، (٦٥) :

(الشك لم يكن مسيحة أفندي قد أحسه أبدا إلا تجاه الآخرين تجاه الفلاحين والمآمير والإدارة وكل الناس لم يكن أبدا قد أحسه تجاه نفسه أومن في حكم نفسه تجاه عائلته تجاه ابنته لنده بالذات . حياتها علنية أمامه وأمام أمها وأمام الناس وحتى إشاعة رسائل العيون والنظرات والإشارات بينها وبين صفوت تكاد تكون علنية هي الأخرى ، وحياتها العلنية هذه هي كل حياتها فهل من الممكن أن تكون لها حياة أخرى حياة تزاولها مع صفوت ابن المأمور في الظلام) .

وفيما عدى مسيحة أفندي يقف أهل التفتيش عاجزين عن معرفة الفاعلة، وهذا الموقف يجعل كل امرأة هدفا ، (٩٠) : (وطالما هي مجهولة فأي اتهام صحيح ، وأي إشاعة قد تكون هي الحقيقة والإشاعات كثيرة والألسنة في التفتيش لا تهدأ وواضح أن الأمر سيظل هكذا إلى أن تنجلي الحقيقة) .

المحور الثاني: واقع عزيزة

وتجلت الحقيقة عن (عزيزة) وعرف فكري أفندي بأمرها أثناء مروره على الأرض وكان الريس (عرفة) قد أراحها من العمل رأفة بها مع احتساب يوميتها ، وعهد بامرأة أن تجلس معها تحت ظليلة بين أعواد النيل المزروعة حول تربيعة القطن وحينما غضب المأمور من تصرف الريس (عرفة) برر تصرفه بأن ١٠٠ عزيزة أم اللقيط المقتول ، وإنهم حين عرفوا هذا تستروا عليها فهي ولية ولنا ولايا وحين أصابتها الحمى رأوا أن يرقدوها في الغيط تحت ظليلة لكي يستمر أجرها ساريا ، فهي غلبانة آخر غلب وتنفق على زوجها المريض وأولادها الثلاثة منه .

وحينما رأى المأمور عزيزة والمرض ينهش في جسدها والحمى تطوق جسدها الناحل رثى لها وتغاضى عن احتساب يوميتها وهي نائمة . موقف غريب حقا يقفه فكري أفندي ومن قبله الريس عرفة بدلا من أن يستمطر اللعنات فوق رأس أجداد وآباء عزيزة يكونان أول المساعدين والمشفقين عليها ، وهي في محنتها زوج قعيد عاجز عن شيئين ، توفير الخبز لها ولأولادها ، وعن القيام بواجبه الزوجي ، ذلك هو قدر عزيزة فهل تستطيع مواجهة قدرها ؟

القاص لم يترك لها حرية الاختيار بين أن تواجه قدرها أو تنكص ، وأتى عند المنطقة التي تستطيع أن ترى بوضوح حقيقة عزيزة وبترها بترا ، فلم يضع عزيزة بين طريقين ولم يترك لها حرية الاختيار ، بل وضعها على شفا جرف هاو في يوم عاصف مستمر ، فكان لابد من السقوط في الهاوية ، وترك سقوطها علامات استفهام بدون إجابة . فمنذ البداية قد اتضح الطريق أمامها نحو الهاوية السحيقة فحينما ذهبت إلى أرض محمد بن قمرين للبحث عن جذور البطاطا تلبية لرغبة زوجها عبد الله أخذ منها محمد الفأس ، هنا بدأت خطوات المأساة ترتسم في وعي عزيزة ، فقد اشتهت - وهي الأنثى – الذكر ، وبذلك اكتملت خيوط السقطة في خيال عزيزة . (١١١) : (وخلع جلبابه وأخذ الفأس منها وتلفت حوله ثم انتقى مكانا ما لبث أن راح ينهال بالفأس عليه وعزيزة قد جلست غير بعيد ترقبه وتقارن بين حفرها وحفره ، والفأس في يدها هي أقوى منها وأثقل والفأس في يده هو القابض عليها هو المتحكم فيها هو الرجل ، هو الرجل الذي يذكرها بعبد الله حين كان يعمل ، وتصبح له تلك العضلات

الأخرى في بطن ذراعه ويلهث ليس لهث المتعب ولكنه لهث الرجل حين يعمل ، لهث منتظم قوي وقور) .

لقد تفتحت مسام كيان الأنثى فيها ، العطش للرجل في صورة (محمد بن قمرين) وهو يبحث لها عن جذور البطاطا حتى أن ما حدث بعد ذلك يعد غريبا وغير مساير لمنطق الأحداث ولكن الأمر مع عزيزة وما كانت تشعر به وتفكر فيه منطقي للغاية ، وإن عدم حدوث ما حدث في تلك اللحظة لا يمنع حدوثه في لحظة أخرى ، وعدم حدوثه من (محمد بن قمرين) لا يستبعد حدوثه من غيره ، (١١٣) : (والواقع أنها لم تتبين تمامًا ما حدث بعد هذا . الأمور حدثت بطريقة أسرع من ان تدركها أو تتلافاها ، ما كادت تحاول أن تقوم حتى كان محمد إلى جوارها في الحفرة يساعدها . مرة واحدة وجدت نفسها في حضنه وقد أطبق عليها بذراعيه ليرفعها وهي وإن كانت قد ارتعشت حين أحست بنفسها في حضن رجل غريب إلاَّ أن الرجل الغريب لم يكن سوى محمد الكشر الذي لا يتسرب إليه الشك .

ولكن الشك بدأ يتسرب إليها حين لم يرفعها ولم يدعها ترفع نفسها . وما كاد الشك يتسرب إليها حتى كان قد أصبح حقيقة – روعت أولا ولكنها استجمعت نفسها ودفعته وناضلت ولكنها كانت ترى أن نضالها لا فائدة منه ، بل ليست تدري على وجه الدقة سر هذا الانهيار الذي أصابها حين أصبحت في حضنه تريد أن تقاوم ولكنها لا تستطيع ، تستميت ولكنها يائسة تصرخ فيتجمع الناس وتصبح فضيحة ومضغة في الأفواه ؟

تسكت تعضه ؟ حتى ملابسها التي لا تحتكم على غيرها مزقها . كل ما حدث أنها ظلت تئن مذهولة مرعوبة حتى قام وشتمته ولكن ماذا تفيد الشتائم . ولم يقل هو حرفا ، فقط ظل ينظر هنا وهنالك ، الغيط خال تماما .والبهائم والناس تروح من بعيد وعاد إليها ، وهذه المرة كان يمكن أن تقوم وتجري وتضربه بالفأس ، إن اضطرت ، ولكنها لم تفعل – سكتت وظلت تئن أنين المظلوم الذي لا يخلي نفسه من مسئولية ظلمه) .

وكأنها كانت جوعي ، ورأت طعاما ليس بطعامها ، فلم تحتمل الآم الجوع والآم الحرمان ، فمدت يدها بكل حرية واختيار لتأخذه ، ولكن لم يكن بديل عن ذلك عندما جعلت لغرائزها هي الحكم والمتصرف فهي لحظات مرت بها لم تر فيها سوى الاستسلام والخضوع ، ولكنه الاستسلام الإرادي والخضوع الممتع بالنسبة لها وهناك الجزاء الوفاق ، فإن لم تستطع تحمل قدرها فلتواجه قدرًا أقسى وأمر وأشق (١١٤) : (أفظع ما في الأمر كان عبد الله . عبد الله لم يقربها من عمر ابنتها زبيدة ،والناس تعلم هذا ، فماذا يقول وماذا يقول الناس ؟ هو لن يقتلها فهو عاجز عن قتلها

والناس لن يقتلوها ، فهم لن يستطيعوا قتلها ، ولكن القتل عندها أهون من أن يعرف عبد الله ويعرف الناس) .

خطأ مصدره قسوة الواقع على الإنسان ، وعدم قدرته على تحمل هذا الواقع فهي لحظة يحاول الإنسان فيها أن يوافق بين ضعفه وقسوة الواقع ، هذا التوافق القائم على التعارض هو الخطأ ، فلا توافق بين الواقع وضعف الإنسان ، فهذان قطبان متعارضان الخط الواصل بينهما هو الألم ، ولا توافق بين القطبان وإن حدث فهو الخطأ – كما قلنا – خطأ مصدره جهل الإنسان البسيط بحقيقته وضاءلته ، جهله بقسوة الواقع الذي يعيشه ، هذا الجهل يدفعه إلى أن يرسم خط أمل في أن يتصالح والواقع ، ولم يدر أن في اللحظة التي يفعل فيها ذلك ، يكون قد وقع في شرك الخطأ ، وهذا لن يخفف من قسوة الواقع بل يزيده.

وفي لحظة التنوير التي مرت بها عزيزة ن أدركت سبب سقطتها بكل وضوح وجلاء ، وذلك حينما عجزت في التخلص من الجنين ، وكانت على وشك أن تفضح بين عمال الترحيلة وهي بعيدة عن زوجها وأولادها وبلدها ، (١١٨) : (وكل هذا من أجل جذر بطاطا ، لا ، كل هذا لأنها لم تقاوم لحظة تلك اللحظة ، التي صاحبتها سبعة أشهر تطاردها كاللعنة المقيمة لماذا تركته يفعل بها ما فعل . تقول لنفسها أنها لم ترض ، ولكنها ترد وتقول : ولكني لم ارفض فليلعنني الله في كل كتاب أنزل لأني لم أرفض . تضرب رأسها في الحائط وتقول ، كنت عارفة أنه حرام وعيب ولم تقاوميه كما يجب . لم تصرخي وقلت الفضيحة وها قد أتت الفضيحة الكبرى اتفضحي إذن يا عزيزة واشبعي فضيحة فلولا أنك ضعفت لحظة لما حدث ما حدث . لحظة ضعف واحدة منها ، هي التي قاومت طبيعتها حين رقد عبد الله رقدته التي لم يقم منها ، قاومت الليالي التي كانت تريده فيها ولا تستطيع ، أيكون هذا هو السبب في أنها ضعفت تلك اللحظة التي أخذها فيها محمد بن قمرين) .

الصراع المعكوس:

فإذا كان الصراع عادة يكون بين اختيارين ، ويكون الخف من نتيجة الاختيار ، فلم يكن هنا أي خيار ، وبالتالي لم يكن ثمة خوف ، فالصراع المعكوس هنا ألغى حرية الاختيار، وألغى كذلك الخوف الذي يظهر طبيعة الشخصية فالصراع هنا قائم على مقولة : (لم حدث ما حدث ؟) وبدل من حرية الاختيار كان التسليم لما حدث ، وبدلا من الخوف من النتيجة ، كان ثمة الندم على ما حدث فالضحية هنا – عزيزة- لا تملك تغيير شيء ، فلم يستيقظ وعيها على وجودها إلاَّ وقد شكل على تلك الصورة ، التي

تدفعها إلى تدمير وتحطيم هذا الوجود ، (فهي لم ترض ، وكذلك لم ترفض) فلتكن الإرادة بيدها من اجل التخلص من هذا الوجود فسعت سعيا إلى إغراق نفسها في ماء الخليج .

والإدراك هنا أو لحظة التنوير التي مرت بها الشخصية ، أتت كالفيض الفجائي بدون إرهاصات ، فإذا كانت الشخصية مسطحة تتقبل تأثيرات الواقع الخارجي بدون أي مقاومة فلا معرفتها بأن ما فعلته حرام دفعتها للمقاومة وخوفها لم يدفعها للمقاومة ، وحاجتها كأنثى لم تقاومها ، ونتيجة لهذا الوجود السلبي الخاضع المستسلم أثمر ثمرة الحرام ، فلحظة الوعي بكل هذا كانت كرد فعل تبدأ السعي نحو التخلص من هذا الموجود عقابًا له عن تلك الثمرة أو النتيجة المعرضة للقيم و للشرع ، أو لأنه أثبت عدم صالحيته للبقاء ، وليس هذا الحكم صادرًا من الخارج ، بل هو حكم داخلي صادر من أعماق الموجود ، وتلك لحظة يصل فيها الوعي إلى قمته ، أن يستصدر الموجود أو الإنسان من داخله حكما بالإعدام على وجوده ، ويسعى إلى تنفيذ هذا الحكم ، وهذا يفسر سعي عزيزة المتكرر إلى إلقاء نفسها في الخليج ، (١٥٩) : (وأسلم التشنج عزيزة إلى نوبات هلع مفاجئ إذ بدأت تقوم بغتة من نومتها صارخة وتنطلق جارية إلى الخليج القريب وتقذف بنفسها فيه بملابسها وكأنها تريد غطفاء نار مشتعلة فيها) .

سعي دؤب إلى تدمير الذات ن حينما لا يجد الموجود إلا ذاته الأثمة فيستدير إليها بكل قوة وعنف ، انتقاما من الذات المذنبة ، وفي نفس الوقت تكفيرًا عن الأثم . (١٦٣) : (إذا أفاقت من غيبوبتها لا تكاد تفتح عينيها وتقول لها أم الحسن : أزيك يا ختي دلوقتي حتى تدب على صدرها بكلتا يديها وتقول : يا لهوي . ثم تأخذ في لطم خدودها وتمزيق ثيابها ولحمها بأظافرها رغم كل مجهودات جارتها ومن يتصادف مروره أو وجوده في محاولة شل حركتها وتكتيف يديها فلا تزيدها محاولات إيقافها إلاَّ ثورة وهياجًا ولا تكف عن تمزيق نفسها إلاَّ حين تهوي مرة أخرى في سراديب الغيبوبة).

وجود تدنس وفسد، ولا طريق إلاَّ إعدامه ، وأي محاولة لمنعه من تنفيذ هذا الحكم هو تعضيد لهذا الفساد، وفي نفس الوقت يقابل بمقاومة شديدة من قبل الموجود ، وإذا كانت عزيزة تشعر بعملها بأنه ورم خبيث يؤرقها ليلا ونهارا فقد سعت منذ البداية إلى التخلص من ذلك الورم الخبيث وعجزت وانتصر عليها واستمد ذلك الورم الخبيث كيانه من جسدها ، وحينما أصبح في متناول يدها قتلته لأنه يمثل لها شيئين :

أولا : انه حرام في حد ذاته، وهذا بعد عقائدي .

ثانيا : سبب لها فضيحة بين عمال الترحيلة ، وهذا بعد اجتماعي .

وقد استراحت بعد أن تخلصت من هذا الموجود المادي المتمثل في الجنين وهي المرحلة التي تعقب التخلص من شيء شاق لاستقبال شيء اشق وأمر (١٢٢): (واستيقظت مع الأنفار في الفجر، ومع شعاعات الشمس الأولى بدا لها أن الهم قد انزاح عن كاهلها إلى الأبد ، وأنها أصبحت طليقة حرة تخلصت دون أن يشمت فيها أحد أو يعيرها أحد من الورم الخبيث الذي كان يوردها حتفها زبدا لها الصباح جميلاً جدًا ، وبدا لها أن كل شيء سوف يسير كما أرادت تماما وكان الله معها).

استراحت بعد الولادة ، تخلصت مما كان يعيش داخلها ويسمم وجودها ولفظت أحشاؤها محتويات الورم ، تلك العملية أخذت أبعادًا وتأثيرات أعمق وأشمل لدى عزيزة ، فهي وإن تخلصت منه وقتلته إلاَّ أنها حملت حملاً آخر هو امتلاء كيانها بالذنب ، حمل آخر ، من نوع آخر ، وأصبحت حبلى بالندم والحسرة والمرارة والعار ، وقد شعرت أنها بحاجة إلى ولادة من نوع آخر ، لتتخلص من هذا الحمل المختلف، في المرة الأولى تخلصت من الجنين ، وهو الوجود الفعلي الذي استمد وجوده من الوجود الرئيسي، أما في تلك المرة تريد أن تتخلص من الذنب ، لعلها تشعر بالراحة التي شعرت بها بعد عملية الولادة الأولى.

فذهبت إلى مكان الولادة الأولى على حافة الخليج ، وتحت شجرة الجميز ومسكت بفرع الصفصاف وتقمصت كل حركات ومشاعر الولادة الأولى ، وإذا كانت عملية الولادة الأولى تمت في الخفاء وفي الظلام وبعيدا عن أعين الناس لأن الحرام كان يتنفس ويتحرك ، فإن الولادة الثانية تمت في عز الظهر ، وعلى الملأ لأن تلك الولادة الرمزية نوع من التطهر والتكفير ، وكل هذا يدفع الإنسان غلى التسامي والعلو.

(وفي الظهر ، في عز الظهر تلك الفترة التي تقف فيها الحياة تمامًا ويئوب الناس إلى غداء يسلمهم إلى غفوة لا يستيقظون منها إلا في طراوة العصر ، في الظهر فتحت عزيزة عينيها فجأة وكأنها لم تكن نائمة وانفرجت شفتاها وطلبت من ابن الريس عرفة الصغير أن يذهب ويملأ لها الكوز الفارغ في تلك اللحظة فوجئت أم الحسن بعزيزة تعتدل وتقفز جالسة ثم تطلق صرخة عالية مدوية ما لبثت أن أعقبتها صرخات هائلات مدويات وقبل أن تستطع أم الحسن أن تدرك أو تعي ما يحدث وقفت عزيزة وهدمت الظليلة وما لبثت أن انطلقت تجري ناحية الخليج وتصرخ وبلا وعي تبعتها أم الحسن وهي تجري هي الأخرى وتصرخ وتستغيث بالناس مخافة أن تكون عزيزة قد انتوت أن تلقي بنفسها في الخليج ، كما كانت تفعل وعلى صرخاتها جاء الناس من كل مكان ، من العزبة من الجرن ، من فوق ماكينة الدراس ، جاءوا هالعين يرون ما هنالك ، وقالت لهم أم الحسن : ألحقوها ترمي روحها في الخليج . وجرى الناس يحاولون منعها ولكنها انهالت عليهم عضا ورفسا ونشب أظافرها بطريقة مجنونة متوحشة لم يملكوا معها إلاَّ التراجع . ولكنها لم تلق بنفسها في الخليج انطلقت تجري حتى وصلت إلى نفس المكان

الذي وجدوا فيه اللقيط وبين دهشة الملتفين حولها وذهولهم جلست عزيزة القرفصاء على حافة الخليج وكأنها تتهيأ للولادة وانطلقت من فمها صرخات متواليات وكأن الطلق اشتد عليها ثم بحثت بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذي احترق نصفه والذي كان لا يزال في مكانه من الحافة وأطبقت عليه بأسنانها واتخذت هيأتها طابعا جنونيا مذعورا وهي تضغط على العود وتنشب أسنانها فيه ، وظلت تضغط بتوحش وتضغط وهي تدمدم بأنين محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوس العود وعيناها جمرتان متوهجتان وشعرها منكوش ن ويدها تعتصران طين الخليج فتحيلانه إلى تراب جاف وفجأة ، وكأن شيئا طق داخلها تهاوت ممدودة على حافة الخليج) .وبذلك تخلصت عزيزة من وجودها ، غراديا بعد أن اكتمل وعيها باستحالة الانسجام بينها وبين الوجود.

التعتيم الشخصي:

الحدث الرئيسي في الرواية (الحرام) ونظرة أهل التفتيش إليه ، و (عزيزة) مصدر ذلك الحدث والفعل إلا أننا لم نر عزيزة وأخذت الشخصية صاحبة الحدث الرئيسي وما ألقى على حياتها قليلاً جدًا من مساحة الرواية ، ولا ينهض بما يتطلع إليه القارئ لمعرفة الشخصية ، ومع التعتيم الذي تعمده القاص وفرضه على الشخصية ووضعها في منطقة الظل ، إلا أنه استطاع أن يخلق التعاطف الحاد بينها وبين من حولها حتى بينها وبين القارئ ، هذا التعاطف لم ينشأ إلاَّ من خلال عملية التسامي والتكفير والتطهير التي بدأت (عزيزة) تدخل في خضمها بعدما ألمت بها حمى النفاس ، ومع ذلك يبقى الظلم الواقع على (عزيزة) ليس من الواقع فحسب ولكن أيضا من القاص ، وكأنه كان يشعر هو الآخر بالحرج والضيق أن يتحدث عن صاحبة تلك الجريمة .

أو أن الحدث الذي قامت به عزيزة يعدل أحداث كل شخصيات الرواية ربما ، ولا نريد أن نجزم بشيء ، لأن النص الأدبي – كما يقولون – حمال أوجه ولا نريد أن نقف بالنص القصصي على رأي واحد .

المحور الثالث: موقف أهل التفتيش من الغرابوة بصفة عامة ومن عزيزة بصفة خاصة

كان سعي أهل التفتيش لمعرفة الفاعلة يعتمد على حاجة كل منهم إلى تبرئة نفسه ، ولم تكن فرحة أهل التفتيش بمعرفتهم الفاعل إلاَّ كفرحة المتهم حينما يسمع إعلان تبرئته ، (١٢٧) فلم يكن فيه حلا للغز الذي حيرهم فقط ، ولكن الحل أيضا على وجه مرض ، الحل كما أرادوه تماما وخافوا ألا يكون . حل بردت به صدورهم وهجعت به خواطرهم

وأعاد لهم الثقة في أنفسهم وأخلاقهم ونسائهم وقيمهم تلك الثقة التي ظلت حائرة مزعزعة تحوم حولها الشكوك وتتطاول عليها الألسن منذ اللحظة التي عثر فيها عبد المطلب على اللقيط .

وإذا كان الترحيلة لا يُقابلون بأدنى اهتمام من ناحية أهل التفتيش ولا يعيرونهم أدنى اكتراث ، فبعد الحادثة أصبح كل اهتمام أهل التفتيش منصبا على الترحيلة ، (١٢٨) : (ذلك هو ما حدث فما كاد أهل العزبة يطمئنون على سلامة أنفسهم بدأوا يستديرون للغرابوة الذين كانوا يتجاهلون وجودهم إلى تلك اللحظة ويعيشون على أرض التفتيش يكاد لا يحس بهم إنسان ، بدأوا كلما ذاع خبر عزيزة ولقيطها وحكايتها يصبحون محط أنظار الناس ومحل اهتمامهم ولكن أي اهتمام ؟) .

كان اهتماما مشوبا بالاشمئزاز والقرف ، فهم وإن اهتموا بهم إلاَّ أنه اهتمام بشيء تافه حقير لا قيمة له والاهتمام هنا يزيد ويضاعف من حقارة وتفاهة الشيء فهم – أهل التفتيش – نظروا إلى الترحيلة وهم موصومون بالعار ، ألم تخرج عزيزة من صفوفهم ؟! (١٢٨) : (الفلاحون الكبار والمزارعون لم يفعل الخبر أكثر من أن هيج كامن تقززهم من الغرابوة واشمئزازهم منهم ، فأصبح الحديث عنهم يسبقه أو يتبعه سيل من الشتائم والبصقات كأن الترحيلة في نظرهم حثالة آدمية تهبط على تفتيشهم مرة أو مرتين في العام كالوباء الذي لا مفر منه فما بلك حين يكتشفون أن تلك الحثالة قد صدر عنها شيء حرام كهذا الذي حدث منذ أيام وأنها حاولت إخفاءه وإلصاقه بأهل بأهل العزبة ، الترحيلة أنفسهم كانوا يكادون يصبحون شيئا حراما ، وكأن الناس جميعا مخلوقات حلال وهم وحدهم مخلوقات حرام ، أي بشاعة يصبح عليها الحرام إذا ارتكب حراما ؟ نساء الفلاحين هن الأخريات كان لهن مثل أراء أزواجهن وآبائهن بل أغرب من هذا كن أكثر حماسًا وأكثر تحاملاً وكأنهن يستكثرون على الترحيلة أن تحمل إحداهن مثلما يحملن وأن تلد مثلما يلدن ولو كان حملها وولادتها حرام في حرام) .

وأعطى القاص لهذا الحدث أكثر من بعد من خلال استعراض وجهات نظر أكثر من شخصية منفردة ، وفي النهاية رؤية الجماعة لذلك الحدث ن فنظرة فكري أفندي لعزيزة ملؤها الإشفاق والرثاء للضعف والمهانة الإنسانية المتمثلة في عزيزة فقد تخيل أن عزيزة زوجته وأنه عبد الله زوجها المريض ، (وفي إغفاءته رأى فكري أفندي نفسه نائما مع عزيزة تحت الظليلة والأنفار كلهم يتفرجون عليه وعليها وكان زوجها ببطنه المنتفخ واقفا ممسكا خطا مع الأنفار وكان هو الآخر يتفرج ولا يفعل شيئا أكثر من أن يقول : حرام عليك يا حضرة المأمور حرام عليك دي عيانة وأفاق فكري أفندي مختنقا وكأنه يعاني كابوس) .

ويستخدم القاص هنا وجهة النظر ليرصد بكل دقة هذا التحول الذي سيجتاح أهل التفتيش من الكره والاشمئزاز إلى التعاطف ، ومن البعد إلى التقارب الذي يحدث بين الاثنين ، ولم يكن القاص ليستطيع رصد هذا التغير في سلوك الجماعة إلاَّ بتبنيه وجهة النظر تلك " إن إحدى خصائص هذه الرواية وغيرها من أعمال يوسف إدريس أننا نرى الحدث ورد الفعل لا من وجهة نظر فردية فحسب بل من وجهة نظر جماعية أيضا فقصة المرأة البائسة المعذبة عزيزة بل حياة الترحيلة كلها ، لا ترى من وجهة نظر فكري أفندي أو غيره من أهل التفتيش فحسب ، بل ترى القرية كلها بأطفالها ثم رجالها ونسائها وهم يتحولون أمام عيوننا من احتقار وكره وغضب تجاه الترحيلة إلى التفهم والحب والتعاطف

وبدأ موقفهم من عزيزة يتغير تغيرا كاملا فبعد أن كانوا ينظرون إليها نظرتهم إلى شيء يدور في فلك الحرام متخم بكل معاني العار والحرج ، بدأوا يشفقون ويرثون لها ن بل امتدت أيديهم إلى عزيزة لمساعدتها ، وانتقل موقفهم من عزيزة إلى الغرابوة ، ولكن هذا التغيير لم يحدث إلا عندما رأوا عزيزة في خضم سكرات المرض ، وكأن لحظات الضعف الإنساني تجمع بين الإنسان والإنسان(١٥٨) :

(غير أن عزيزة حين بدأت تخرف وتصرخ صرخاتها المحمومة ويخف إليها بلدياتها يحادثونها ويصبرونها ويهدهدون عليها وكأنها واعية عاقلة مدركة بما تقول ، حين بدأت تفعل هذا ن بدأ الجمود يذوب ، وبدأت ألسنة المتفرجين من أهل العزبة تنطلق وتتحدث مع الغرابوة وتشارك بكلمة عطف أو بمصمصة شفة ثم تجر الكلمة كلمات ويبدأ حديث بين الرجال والرجال ، وبين النساء والنساء ولكن عزيزة بعد ثلاثة أيام من رقادها بدأت تتشنج يتخشب جسدها حتى يصبح جافا مشدودا كالعصا وتعض لسانها حتى تدميه

الشخصية المصرية والبعد الثالث :

ونجح القاص هنا أن يرصد ويلتقط ملمحا من ملامح الشخصية المصرية في أعماق الريف المصري ، وهذا ملمح حضاري احتفظت به الشخصية المصرية في أحلك لحظاتها التاريخية ، وهو – الملمح – من أخص خصوصيات الشخصية وهو أن يهم الجميع لنجدة فرد من أفراده متناسين ما بينهم من خلافات وأحقاد متناسين كل شيء إلاَّ ما يدفعهم لنجدته ، وهو ما نسميه في الريف (بالواجب) فحينما رأي أهل التفتيش ما تعانيه عزيزة هموا لنجدتها والتحموا بالغرابوة فالشخصية في ذلك الزمان والمكان بسيطة جدًا ، ولكن تلك البساطة تخفي تحتها كما هائلا من رصيد حضاري ، الذي لا تظهره إلاَّ الأزمة أو المواقف الصعبة ، هذا الرصيد الحضاري ليس محصلة تجربة فردية في زمان محدد أو مكان معلوم ، وإنما محصلة أجيال طويلة ، يعيش في ضمير

الأمة ، فهو إحساس فطري يدفع صاحبه بدون تفكير وبدون وعي إلى أن يفعل هذا الفعل ، هذا الدافع والوازع الفطري هو الذي دفع أفراد أهل التفتيش وجماعته أن يغيروا مواقفهم من عزيزة والغرابوة واستطاع القاص بذلك أن يحقق البعد الثالث كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود " إن القصاص في رسمه لأشخاصه إذا ما كشف خلال سلوك الأشخاص عن المفاتيح الدفينة لكل سلوك فإنما يبلغ بهذا بعدًا ثالثا ، وبذلك تتكامل لخلقه الفني أبعاده الثلاثة ، فكثرة من حوادث أولا ، وإطار نفسي يضمها في شخص واحد ثانيا ، وأساس أولي عميق تنبني عليه كل تفصيلات الحياة ثالثا "

وهذا هو عماد العمل الأدبي الصادق ، أن يجلي القاص من خلال كم الأحداث والمواقف جوهر الإنسان الذي يعيش في بيئته ويزيح ما ران على وجه من غشاوة ، يكشف أصالة وعمق ووعي والسمات الحضارية التي تميز الشخصية المصرية عن بقية الشخصيات في أي مكان في العالم ، ولا تشغل القاص كثرة الأحداث والمواقف على أن يردها إلى مصدرها الرئيسي ومنبعها الأساسي .

لأن البطولة ليست بطولة الأحداث ،فالأحداث ما أسهل أن يأتيها على أيدي القصاص والشعراء هذا أو ذاك من عامة الناس ، وإنما الموهبة الفذة بحق هي تلك التي تنطق الأحداث بين يديها بالأغوار النفسية والأبعاد الحضارية التي تفتقر إليها أبطال الرومانسية والواقعية على اختلاف مذاهبها ، لا يقف خلودهم عن حد التحليل النفسي ، وإنما يجمع إليه البعد الحضاري لبيئة وبني قومه ولا يمكن الخلط مثلا بين دكنز وجوركي في أبطالهما وهم جميعا من نفاية المجتمع وأحلاس الأزقة والشوارع لأننا نحس بكل له منهجه في التشرد وملامحه الخاصة في النفوس " (٧) .

فعلاقة الإنسان المصري بغيره ليست علاقات جامدة ، وإنما في تذبذب مستمر وتغير ، من البعد إلى القرب من الكره إلى الحب ، ذلك لأنها موصولة بهذا الجوهر الكامن في أعماقه إبراهيم ، وهذا الجوهر الإنساني يفرض سلطانه على تلك العلاقات ، ويملي عليها أحكامه ، وكلها أحكام شاخصة إلى تعضيد وتأكيد صفة الإنسانية ، حيث كادت أن تنسى من كثرة ما مر بالإنسان من تجارب ومواقف مؤلمة تنسي أول ما تنسيه تلك الصفة التي تحفظ عليه كيانه وكرامته ووجوده الإنساني ، وها قد جمع المصاب بين فئتين من الناس كان البعد والكره حجازا بينهما ، فبعد موت عزيزة أسرع أهل العزبة نساؤهم ورجالهم لتعزية الترحيلة (١٦٨) : (أما رجال الترحيلة فقد جلسوا غير بعيد في مقدمة الجرن يتقبلون عزاء رجال التفتيش وقد اختلطت العمم بالعمم والجلاليب بالجلاليب ، فلم تعد تستطيع أن تميز الفلاح من الترحيلة ولا صاحب

[٧] - جوانب من قضايا الأمة العربية – د. حلمي على مرزوق – صفحة (٨٨) .

المأتم من المعزي بينما الشيخ أبو إبراهيم الفقي قد احتل دكة النوارج الواقعة على رقية قمح نصف مدروس ومضى يتلو بصوته الأجش المبحوح بعض ما تيسر من سورة النساء ، وشعاع الشمس يحمر ويغيب خلف جبل التبن الهائل المتخلف عن دراس المكنة).

ويحرص المأمور بعد ذلك على أن تدفن عزيزة في بلدها ويدعو الأسطى عبده ليحمل عزيزة في اللوري ليذهب بها إلى بلدتها ، ويغادر جسمان عزيزة أرض التفتيش مشيعا ببكاء ونهنهات النساء ونظرات وعبرات الرجال .

ولم تشغل كثرة تفاصيل الرواية القاص على أن ينتقي منها ما له دلالة ومغزى بعيد ن وهو وإن كان حاضرا في كل وقت ومع كل حديث إلاَّ أن هذا الحضور لم يفسد موضوعية الرواية ، فهو لم يقحم نفسه إقحاما ولكنه كان موجودًا ليرشد الحدث القصصي من خلال وجهة نظره المتجانسة مع العمل الأدبي ككل توظيف الحدث بتفاصيله الدقيقة الملموسة للكشف عن المشاعر والأفكار والمواقف وجميع الأعمال التي قام بها أهل التفتيش لمساعدة عزيزة المسكينة والأجر الذي يدفع لها ويدفع لجارتهاالتي تعني بها في أثناء مرضها والماء الذي يوفرونه لشربها والطعام الذي يرسلونه إليها وذلك المشهد المقلق بجوار الخليج ولحظة الوداع الحزينة كلها أدوات وأساليب (وجهة النظر) التي برع إدريس وتميز في استخدامها " (٨).

[٨]- وجهة نظر في الرواية المصرية - د . إنجيل بطرس سمعان – صفحة (١١٤).

الفصـــل الثـــالـث :
العسكري الأسود

سحق الآدمية .

تخريب الإنسان .

سيكولوجية المعذب .

لقاء الثأر .

الصدع .

تكاد تجمع كل الأعمال الفنية على اختلاف أنواعها ومسمياتها على التأكيد على قيمة واحدة والإعلاء من شأنها ألا وهي قيمة الإنسان ، بل كل نشاط فكري أوعملي لا يستهدف تلك القيمة فهو نشاط أجوف لا جدوى منه ، بل لا تقاس الحضارات البشرية إلا بهذا المقياس ، فإذا كانت كل أنشطتها ومضامينها متفرعة من هذا الأصل فهي حضارة إنسانية قلبا وقالبا ، أما إذا كانت تستبدل بتلك القيمة قيما أخرى ، فهي ليست بالحضارة الإنسانية ، وأطلق عليه أي اسم من الأسماء ... حضارة المال ، حضارة المادة ، إلاَّ أن تكون حضارة الإنسان .

أـسحق الآدمية:

ماذا يفعل الضرب التعذيب والسجن والتنكيل بالإنسان ؟

هل يسبب له نوعا من الألم الجسدي فحسب ؟

وإذا كان يسبب له ألما جسميًا ، هل يترسب هذا الألم في عقل الإنسان فتجعل كل تصرفاته تتسم بالخوف والتردد ؟

التعذيب الواقع على الإنسان يخرجه من جنس الآدميين ليسلكه في جنس آخر لا صلة بينه وبين الآدميين فهو يهتك كل تلك الصلات والعلاقات التي تربطه بصفة الآدمية ويمحو كل تلك السمات والملامح التي تسلكه في مسلكها، وهذا ما وقع على (شوقي) الشخصية المحورية في الرواية . وأحداث الرواية تدور في أربعينات القاهرة ، وشعور بالضعة والضياع يجسم فوق صدور الشباب المثقف ، شباب الجامعات في تلك الفترة السوداء من تاريخ مصر ، وعرض القاص حياة (شوقي) على فترتين :

الأولى : قبل دخوله السجن وتعرضه لعذاب العسكري الأسود .

الثانية :بعد خروجه من السجن .

فقد كان شوقي من زعماء الحركة الطلابية في الجامعة ، وكان من الثائرين على الوضع الذي تعيش عليه البلاد ، وكان يؤمن بمجموعة من المبادئ يريد تحقيقها لتخليص البلاد مما تعانيه ، وربما هذا هو السبب الذي جمع تلك الشخصية بالقاص ، (١٢).

(ربما السبب في الصداقة المهيمنة الكبيرة التي جمعتنا أننا كنا نؤمن رغم اختلاف طرقنا ووسائلنا – أن لنا رسالة واحدة نحن مبعوثو العناية لتحقيقها وإنقاذ بلادنا وتغيير مصير شعبنا تغييرًا جذريا وإلى الأبد ، وهكذا بدأت واستمرت علاقتي بشوقي) .

فقد كان (شوقي) يحمل رسالة ، أو هو يضع مصلحة بلاده في المقام الأول مثل كل شاب وطني مخلص يسعى نحو هدف يحقق لبلده الحرية والتخلص من كل أغلال الاحتلال والتخلف ، وكانت لديه الإرادة والتصميم والقوة ليحقق ما يحلم به وما يصبو إليه (١٤) :

فقد كان (شوقي) يتمتع بطاقة إرادية هائلة ، وكأنه ولد وهو يعرف بالضبط ما يريد ، ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة . وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوق طبقة ، وكل يوم تزيده عمقا وتشعبا بطريقه فمال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد) .

إذن (شوقي) لديه كل مقومات الإنسان الذي وضع لنفسه هدفا يعمل جاهدًا لتحقيقه ، ولديه القوة والإرادة ليحقق هذا الهدف ، وليس بالهدف الذي يتسم بالذاتية أو الأنانية ، وإنما هدف لمصلحة البلد أولاً وأخيرًا .

تلك هي صفات (شوقي) قبل أن يدخل السجن ويتعرض لما تعرض له؛ وبعد أن أُخرج من السجن ، وعُين في المكتب الطبي للمحافظة مع القاص اكتشف القاص هذا التغيير الذي قلب شخصية (شوقي) رأسا على عقب، أما سبب هذا التغيير وما الذي حدث في السجن فيرجئه القاص إلى آخر القصة . فقد تغيرت نظرات (شوقي) عنها قبل أن يدخل السجن ، (وكان أول ما لاحظته أن نظرته اكتسبت طابعا آخر لم يكن لها كأن في عينه دائما بريق يشع ويكسب ملامحه جاذبية خاصة ، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه ، وتفضح ملامحه الضوء الداخلي واشمه ويتركز النور في عينه ، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة . ذلك البريق كان قد اختفى وكأنما اجتثت من

جذوره ، ولم يبق لعينه اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي . كنت كلما نظرت في عينه أحس بإحساس غريب خاص يضايقني أي لا أستطيع إدراك كنهه ، وأني لي أن أعرف أن استطيع أن أدرك كنه ذلك الإحساس إلاَّ هناك وبعد أعوام طويلة في زمان ومكان كان مستحيلاً أن يخطرا على البال) .

ثم أدرك أن صوته قد تغير ، الكلمات خائفة ترتعش تحرص على ألاَّ يحدث صوتا حتى صوت نبرات الحروف وهو لا يرى إلا ما أمامه فقط وكأن نظراته قد صبت صبا وكأنه لا يعيش إلاَّ لنفسه ، فهو لا يريد إلا أن يرى موضع قدميه أمَّا ما حوله فهو لا يهتم بهم (ذلك الذي كان لا يهتم إلا بما حوله ، المتمرد الثائر أصبح كالحمل الوديع يمضغ العشب في صمت وسكون لا نهاية له) .

(ثم بدأت أعي أن صوت (شوقي) قد تغير فأصبح لا يتحدث إلاَّ همسا همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائما أن يرفض طلبه .ثم هاتان النظارتان لا أقصد النظارات الطبية ، أقصد تلك التي تركب للخيل لكي لا ترى إلاَّ في اتجاه واحد هاتان النظارتان الخفيتان اللتان لا تجعلانه يرى إلاَّ ما أمامه ، وما أمامه فقط ، أين هذا من (شوقي) المتلفت دائما حوله ،الباحث المنقب في كل شيء من أمور الدنيا والناس ، الغاضب الثائر إذا وقعت عينه على الخطأ ، المهدد بالويل والتغيير وإخضاعها لما يريد ؟) .

وبدأ الخوف يعيش داخله ، وينسج خيوطه السوداء على أفكاره وأفعاله يخاف من كل شيء يواجهه ، يصنع قوقعة يحيطها حول ذاته ، فقد أصبح كائن رخو سلبت منه الإرادة ، وكل ما و يعطيه القوة ليتحمل وجوده وضربات هذا الوجود (٣١) : (إذا كان أخوف ما يخافه أن تحل الكارثة مرة فيخطئ في حق لائحة من اللوائح أو قانون من القوانين، هو الذي بدا عدوا لكل قانون أصبحت المسئولية هي عدوه الوحيد اللدود يفعل المستحيل ليتجنبها ، ومستعد أن يسير أميالاً إذا كان في السير ما يجنبه قفزة واحدة يتحمل فيها درهم مسئولية ...إلى درجة كان يخيل فيها أحيانا أنه يود لو يشفى جسده ويشفى حتى يصبح كائنا أثيريا لا يتحمل مسئولية إيجاد مكان له فوق سطح الأرض ، أو نظرة يلقيها عليه إنسان ومع هذا تعجب لتمسكه بالحياة ونهمه إلى الدنيا بطريقة يكاد معها أن يبتلعها لو استطاع داخل جوفه) .

لقد أصبح كائنا معقدا لا يستجيب استجابات واقعية لمؤثرات العالم الخارجي ، وإنما استجابة خاضعة لنفس كائن حطمت داخلة بوصلة الاتزان ومؤشر العقل ، ليحل محلها الخوف من كل شيء وعدم الأمان لكل شيء .(٤١) :

(وجوده انحصر كله وتآزر ليحقق هدفا واحدا ، كيف يهرب من كل شيء حوله ، فالوقوف يعرضه لشيء لا يعلمه ولا يعرفه ، فلم يعد داخله ذلك (الكنترول) الذي يضبط ويحكم تصرفات وأفعال الإنسان ، إنما يريد أن يحقق كيانا ذاتيا خوفا من تحطيمه وهتكه ، وكأنه حيوان هائم في غابة لا يريد أن يترك أثرًا كي لا يكون دليلاً عليه أو مرشدًا يقود الآخرين إليه ، إنه يهرب من أن يكون إنسانا وكل تصرفاته وأفكاره تتمركز في بؤرة واحدة هي كيف يمحي صفته الآدمية فهو يعيش متخفيًا أو متنكرًا لا يعيش نفسه ولا يحي ذاته) .

(هناك حيث تدرك أن شوقي وإن ظل في ظاهرة بشرا ، فهو في حقيقته لم يعد يمت إلى البشر ولا إلى أنواع الآدميين المتعارف عليها من عقلاء أو مجانين أو شواذ ، باستطاعتك أن تقول أنه خرج ليكون نوعًا جديدًا قائمًا بذاته . إذا قد خرج ليحيا بدافع جديد تماما على الجنس البشري .فهو لا يحيا لتكاثر أو يبقى أو يتطور وإنما دافعه للحياة كان أن يهرب ويضر ، وكأنه لم يعد يرى في الجنس البشري كله سوى جن وعفاريت همها أن تنقض عليه وتعقره وتفتك به ...هم جميعا شياطين ، وهو وحده الإنسان ، أو هم جميعا بشر وهو وحده الشيطان الذي يعادونه ويتربصون به ولن يهدءوا حتى يقضوا عليه) .

هذا الكائن الذي يزداد انعزالية عما حوله ، وجدار الغربة والوحدة يزداد سمكا وارتفاعا ليسجنه عما حوله يعيش مأساة حادة ، فهو مجبر وهو يقف هذا الموقف الذي صهرته نار الخوف والرعب من الآخرين على أن يحيا معهم وبينهم (٤٢) : (ومأساته كان أن عليه أن يظل يحيا على ظهر الأرض مع هؤلاء الذين يخاف منهم ويرهبهم عليه أن يعاملهم ويتصرفوا في أمره ويتصرف في أمورهم ويصادقهم ويزاملهم ، هو الذي ينتفض رعبا منهم) .

حركة مستمرة لا تكل نحو التقلص والتقوقع ، والانحلال والذوبان ، يخاف من ذاته من وجوده ، أخشى ما يخشاه هو التواجد ، يريد أن يكون هلاميا ، كائن أثيري ، لا يراه أحد ولا يشعر به أحد ،(٤٣) : ويبني حياته لا عن طريق أعمال يضعها فوق بعضها ليكون هرمًا شخصيًا ولكنه يبنيها إلى أسفل ...وحفرها تحت الأرض بجحور متشعبة ملتوية معقدة كلما أحس في جحر فيها بخطر وافر وانطلق يكون جحرًا آخر إنه يعرفك ويقيم معك الصداقة أو الزمالة إمعانا في الهرب منك ويجاذبك أطراف الحديث ليلهيك عن نفسه ، وينافقك أو يصنع معك المعروف لكي يرشوك ويتزوج كي يهرب من مسئولية عدم الزواج ويعمل في قومسيون طبي المحافظة لكي يفر من البوليس والمباحث حتى ولو مكان الفرار إلى قلب البوليس

ب-تخريب الإنسان:

ولكن ما الذي تعرض له (شوقي) في السجن ليجعله كائنا غريبًا كل الغرابة ومنبت الصلة عنه عما كان قبل دخوله السجن، فالبشر يدخلون السجن ويخرجون منه كما دخلوا ، وإن أصابهم نوع من التغيير فهو تغيير لا يحيلهم أي كائنات غريبة هكذا .

فقد يتلقى الإنسان الضرب ، ولكنه لا يشعر به وإن شعر فهو شعور طفيف ولكن هذا إذا كان لديه حرية الرد أو حرية الدفاع عن النفس ، تلك الحرية تمثل خط دفاع ذاتي يحفظ على الإنسان كيانه ويحفظ عليه آدميته أن تسحق وكل ما يتعرض له يكون هين التأثير إذا كانت حريته موفورة له ، وكل شيء هين يكون له أضخم التأثير إذا كانت حريته مسلوبة فهو يتلقى ما يتلقاه وهو إنسان؛ أما إذا كان مسلوب الحرية ، فهو ليس بإنسان وكل ما يتعرض له يؤكد على هذا المعنى ويزيد من خروجه من دائرة الإنسانية ومركز البشرية ، فكل ما يتعرض له من ضرب وتعذيب هو نوع من التخريب والتدمير لمقومات هذا الكائن الراقي انفجار داخلي حينما لا يجد الغضب والثورة قنوات ليخرج من ذات الإنسان ينفجر في الداخل ليدمر مراكز الإنسانية داخل الإنسان ولا يبقى إلا الشكل الخارجي للإنسان .

(٥٠) : بالاختصار أنت لا تشعر بالضرب حين تكون حرًا أن ترده ، أنت تشعر به هناك حين يكون عليك فقط أن تتلقاه ولا حرية لك ولا حق ولا قدرة لديك على رده ... هناك تجرب الإحساس الحقيقي للضرب بألم الضرب لا مجرد الألم الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها إنما بألم آخر مصاحب أبشع ...أقوى من ألم الإهانة حين تحس أن كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة إلى كيانك كله وإلى إحساسك وكرامتك كإنسان ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل إصابة مباشرة ،لا يحجبها أو يخفف منها جلد أو عظام أو حرية أو حق الإنسان أن يتصرف كالإنسان ويرد ، وهذه كلها جروح لو تعلمون عظيمة . أن حرية الإنسان ...حقه أن يرفض أو يقبل أو يرد الاعتداء جزء لا يتجزأ من جسده وكيانه ولحمه وجلده وأنسجته الواقية الحية وليست ملابسه أو جدران بيته التي تحفظ عليه ماء حياته كإنسان وتحميه وهي التي إذ انتزعت منه لا يموت كما يحدث للسلحفاء إذ أنتزع غطاؤها ، ليته كان يموت ولكنه يبقى إنسانا منزوع الحق في حماية نفسه والدفاع عنها فما بالك إذا كان يُرغم على أن ينتزع هو بنفسه هذا الغطاء وتجبره القوة الغاشمة على السكوت على تلقي الألم والسكوت ، على التنازل عن إنسانيته وحتى عن خصائص الحيوان ، حين يستحيل إلى كومة عارية من لحم الخائف مذعور لا تستطيع أن تعض أو ترفس ن عليها أن تتلقى الألم وتسكت عليه ن

والسكوت على الألم أشد إيلاما من الألم من الألم نفسه خاصة إذا كنت أنت من تتولى إسكات نفسك. هذا النوع من الضرب حين لا يبقى أمامك لكي تمنع ألمه وعاره إلا أن تحتمل وتصبره أو تقتل نفسك وتنتحر ، عمل لا يستطيعه ويقدر عليه معظم الناس ، حتى إذا قدروا فقانون الحياة نفسه يرفضه ويمنعهم من إتيانه ، إذ كيف يعقل وأنت في موقف تدافع فيه عن نفسك ووجودك أن تشرع في قتل نفسك ومحو وجودك ؟ بالعكس ، إن أبشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر ، ولكنك تزداد استمساكا بالحياة وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة في شدتها وقوتها وهكذا في مقابل ضربة هائلة الألم عارمة القسوة مهينة تتلقاها من الخارج تنهال عليك من داخلك ، ألف طعنة ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب كماء النار روحك لأنك لا تحدث ولا تريد الموت ولا تزال حيا تتمسك ذليلا بالحياة).

وأن يحتمل الإنسان الضرب أو يتلقاه هو نوع من الدفاع عن النفس وقوة هائلة وإرادة صلبة ن تلك التي تنبثق في نفس الإنسان حينما يتعرض للضرب والتعذيب ، تلك القوة والإرادة هي دفاع داخلي لا إرادي لمقاومة الهجوم والاعتداء الخارجي الواقع على الإنسان ، سمها حلاوة الروح ، حب الحياة والتمسك بها ولكنها لا يكتشفها الإنسان وأنه مزود بها إلاَّ وقت انبثاقها ، فهي كائنة لا تظهر إلاَّ في هذا الوقت ، قوة الكائن الحي ، وإرادة الحياة .أقوى إرادة في الكون ، واقوي قوة تأخذ بنواصي الأحياء في هذا الكون.

وتلك القوة مصدر عذاب آخر للإنسان ، إذ ما فائدة وما جدوى التمسك بتلك الحياة ، وأي نوع من تلك الحياة وداخل الإنسان يخرب ويقتل أثمن ما يملكه إحساسه بآدميته .

أمَّا سوط العذاب الذي دمر وخرب (شوقي) فهو العسكري الأسود أو (عباس محمد الزنفلي) وهو شخصية قائمة بذاتها ويصلح أن يكون رمزا للقوة التي تستهدف في المقام الأول تدمير الإنسان ، فعلاقة شوقي بعباس الزنفلي علاقة المعذِب بمعذبَه ، أو علاقة المخرب بمخربه ، علاقة معقدة غاية التعقيد .

وكان أول لقاء بينهما بعد خروج شوقي من السجن ، ووصول ملف خدمة (عباس) لتوقيع الكشف الطبي لإثبات عجزه تمهيدًا لفصله من الخدمة ، وكانت أول جملة تقال في حق عباس على لسان (عبد الله التمرجي) الذي يعمل في المكتب الطبي مع (شوقي) ، : (ده خلاص يا بيه ...الرجل بقى يهبهب زي الكلاب ويهوى زي الديابة) .

وحينما عرف (شوقي) أن (عباس) هو العسكري الأسود ، سوط عذابه كاشف عبد الله التمرجي والقص بذلك ، حينما كان عبد الله يقص عليهما بعضا من صفات عباس ، (٥٥) : (وكان جبار ... أعوذ بالله ...والله يعيني دي شفته قفلوا عليه الأوضة اللي في الدور الثاني بتاع المحافظة اللي قصاد المكتب الطبي في الدور الثاني على طول هو وواحد من السياسيين ، وقعد يضرب فيه من صباحة ربنا والجدع يقول أي ! ..ولا هو سائل فيه ،ولغاية ما روحنا الساعة خمسة وشرفك سبناه بيضرب فيه) .

بعد ذلك اعترف شوقي للقاص عن اسم المضروب ، يقول : (أنت عارف الي كان بيضربه العسكري الأسود في المحافظة ده م الصبح للمغرب عارف مين ....

كنت أنا .

وكأن فرصة العمر قد لاحت لشوقي ليتقابل مع تلك القوة العمياء ، القوة الغاشمة التي دمرته وجعلته أطلالا ، فبالرغم من إصرار عبد التمرجي بأن يترك شوقي الحالة للحكمباشي ، ولكن شوقي أصر على الذهاب إلى عباس ليوقع عليه الكشف الطبي .

أما عباس الزنفلى فقد نشأ قويا متفوقا على كل أقرانه ، وطارت شهرته وصيته في بلدته ، وبعد أن انتهي من تأدية سنوات الجهادية تزوج من ابنة عمه (نور) ونزح بها إلى مصر ،وإذا كانت حياته الوظيفية قد شابها كثير من الاضطراب والتنقلات والجزاءات في أول الأمر ، فقد استقرت ومنح ترقيات وعلاوات استثنائية ، هذا بعد أن أعجب بقوته رئيس الوزارة ، وأخذه ليصنع منه سوط عذاب لخصومه السياسيين وتفانى عباس في تأدية واجبه تفانيا عظيما فقد كان آلة تعذيب أحكمت صناعتها ، فهو إذا سلط على أحد لا يتركه إلاَّ بعد أن يتدخل اثنان يقاربنه في القوة ليستخلصوا ما بقى من ضحيته ، وأصبح رمزا لعود الإرهاب والعصف والتنكيل.

وعش عباس في هنية من العيش الرغد الزاخر ، وأصبح محاطا بالمريدين وأصحاب المصالح والمتملقين ، وكان يسهر معهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ولكنه يتحول إلى شخص آخر حينما ينفرد بنفسه ، (٧١).

(إن عباس كان حين يذهب عنه الأصدقاء والزوار ويصبح البيت خاليا إلاَّ منه ومنها ويذهب عنه المرح والضحك الذي كان غارقا فيه ، ويستمر على جلسته المتربعة منكس الرأس إلى أسفل شاردًا في حزن مفاجئ لا تعرف سببه يبقى هكذا بالساعة والساعتين لا يتحرك ولا يحدثها ولا يغير من وضعه ، وإنما كان يحدث بين كل حين طويل وحين أن يرفع رأسه فجأة مستلا من صدره تنهيدة عميقة قائلا :

إيه حكم ! ثم يعود رأسه يسقط ويعود إلى الحزن الشارد الذي كان فيه) مواجهة مع النفس ن يتذكر فيها الإنسان كل ضرر ألحقه بالآخرين .

ج-سيكولوجية المُعذَب:

إذا كان هناك ضرر واقع على المُعذَب ، فسوف تصاب شخصيته بالكثير من التدمير والتخريب ، ليحيله إلى شخصية منبتة الصلة بالإنسان السوي ؛ لأنها طمست كل الملامح الداخلية التي تميز الإنسان عن غيره من بقية الكائنات ، فإن الضرر يلحق بالمعذِب أيضا .

ففي نفس اللحظة التي يقتل فيها القاتل فلانا من الناس يكون قد قتل نفسه أيضا ، لأنه بارتكابه هذا الفعل (الجريمة) قد خرج أو أُخرج من عداد الجنس البشري ، القاتل أيضا مقتول ، والقتل هنا تم بيد القاتل نفسه ، لأنه هتك القيمة الآدمية للإنسان ، ليس لإنسان منفرد بالذات وإنما لكل إنسان على وجه الأرض وهو – القاتل – داخل هذا الحصر ، فالقاتل لم يقتل ذاتا إنسانية فحسب ، وإنما أوجد صدعا لقيمة تمس كيان وكرامة ووجود بني الإنسان جميعهم ، وهو من أولهم وهذا ما حدث لعباس الزنفلي ، فقد مر بالأطوار التي مر بها شوقي ، فقد تغير ولم يعد هو عباس الذي تعرفه زوجته (نور) عين المعرفة وأصبح يهوهو ويهبهب وأراد القاص أن يعطي للتغيير والتحول المعنوي الذي انتاب نفس ومشاعر عباس أراد أن يعطيه أبعادا مادية لكي يزيد من أثر التحول ، فأعطى بعض صفات الحيوان المتوحش ، أو الكلب لعباس ، وكما تعود على تعذيب وتدمير الآخرين فاستدار في نهاية الأمر على نفسه ليدمرها ويخربها .

لوم وتأنيب وتقريع من الجزء الحي الباقي فيه ، فمهما كانت قوة الإنسان في إخفاء هذا الجزء ، وتغليب وتعظيم الجانب الشرس في شخصيته ، إلاَّ أنه في لحظات يضعف وتخور قواه ليسطع هذا النور ، نور الضمير ، وتبدأ عملية حساب عسير، محاسبة الإنسان لنفسه ، وحينما يحاسب الإنسان نفسه ، فهو من أغلظ القضاة أكبادا .
وهذا ما كان يشعر به (عباس) حينما ينفرد بنفسه ، وليس هناك من سبيل للنجاة من ذلك الحساب إلا بالهرب ... ووجد (عباس) الأفيون والحشيش خير منجاة من العذاب وتأنيب الضمير ، والمرحلة التي كان عباس يمر بها تشكل لغزا لزوجته (نور) ، فهي لا تدري ما سبب تغيره هكذا وكل ما تعرفه وتستيقنه أنه لم يع (عباس) ، لقد أصبح شخصا غريبا عنها ، لا صلة بينها وبينه حتى الفراش لم يعد يجمعهما حتى ظننت أنه ممنوع عنها : (٧٥) :

(إن عباس لم يعد عباس ، لقد أصبح رجلا آخر لم تره أبدا ولم تعرفه. رجلا آخر بطبائع ومزاج آخر غريبا لا تحس أبدا أنه زوجها الذي تزوجته ومن الواضح أنه هو أيضا ، وقد عادى كل من كان يعرفهم وتغير ولم يكن قد تبقى سواها بجانبه ، وكان واضحًا أنه بدًا هو الآخر يستغربها وينكرها ولا يرعى لها شعورًا ولا يهمه من أين تنفق أو كيف تدبر الأمور .(أم على الحسادة) تقول لها أن الأفيون قد غيره

ولكنها هي العليمة الخبيرة به تعرف أن الأفيون وضيق خلقه وشروده ونفوره من الناس عرض وليس سببا ، السبب أكبر وأبعد من أن تستطيع وحدها إدراكه ، لقد كانوا يحيون ككل خلق الله في أمان ، فماذا حدث ؟ قالت لنفسها أنها العين وعين أم على بالذات ،وأخذت من (سملها) ورقت وبخرت وقالت أنه عمل وذهبت لشيخ العمولات ودفعت الأجر وذبحت الديك الأسود وجربت كل علاج ودواء. وحالة لا تسير إلا إلى أسوأ خاصة هجره لها في الفراش وذلك الذي طال وطال حتى اعتقدت أنه ممنوع عليها بسحر ، التمست فكه وفكته وظل مع هذا ذلك الشخص الغريب الذي لولا الشبه الذي لم يتغير لما عرفته وظل هو يبعد عنها ويبعد ولا يكاد يحس بوجودها) .

إنه معزول عما حوله ، وكأن منفذ وجوده سدت ، وصدره ضيق كمدا ، فهو يتجرع العذاب أضعاف ما أذاقه لمن عذبهم ، إنهم يلاحقونه في ليله ونهاره وضميره لا يتركه يهنأ ، لقد فعل ما يعاقب عليه ، ولابد أن يعاقب نفسه على ما فرط في جنب الآخرين ،(٧٧) : (كان عباس يبدو كمن جُن ، يصحو صارخا مرعوبا إذا نام ، وإذا أنفرد بنفسه تجده فجأة قد انهال عليها – على نفسه – شتائم وسباب نفس شتائمه ذات الألفاظ الداعرة ، بل رأته مرة ينهي شتائمه لنفسه بصفعة من يده يهوي بها على وجهه وقررت يومها أن لابد من التعجيل بالفرار).

فهو وجود مدنس سعى جاهدًا إلى تطهير نفسه بنفسه ، ولا يجد إلى ذلك سبيلا سوى إنزال العقاب على نفسه عسى أن يخفف ذلك مما يعانيه من عذاب ولوم نفسي حاد .

د-لقاء الثأر:

والتقى شوقي بعباس ، ولكنه لقاء يختلف عن ذلكم اللقاء الذي كان يحدث في الماضي ، ففي الماضي كان اللقاء يحدث في السجن ، لقاء تخريب وتدمير من عباس لشوقي ، أما في هذه المرة ، فاللقاء يتم في بيت عباس ، بين مريض وطبيبه ولكنه كان أبعد ما يكون عن لقاء الأطباء بمرضاهم ،كان لقاء المقتول بقاتله المخرب بمن خربه ،

لقاء وجد فيه شوقي بعض العزاء لما سببه له عباس ، هذا النوع من العزاء والراحة التي يشعر بها الشخص الموتور بأن خصمه قد نال جزاءه وكأن شوقي كان مقتولاً ، وحينما رأي عباس رُدت الحياة إليه مرة أخرى:(٨٤) :

(إذن في تلك اللحظة بدا وكان شوقي القديم ...شوقي الثائر قد دبت فيه الحياة من جديد وصحا وكأنه كان ميتا ، محنطا في مكان ما في جسده)

لقاء أغرب ما فيه أن شوقي يقف على قدميه وعباس طريح الفراش، وعندما تحدث (شوقي) مع عباس تحدث معه بعنف وفظاظة حتى أن زوجة عباس (نور) والقاص تدخلاً خوفا من أن تمتد يد شوقي إلى عباس ، وكان عباس يجهل شوقي ، أو هذا ما توهمه شوقي ، فآل على نفسه تذكير عباس بكل شيء ، بالكائن الإنساني المخرب ، بأطلال الإنسان ، الذي يسير على قدمين ، وقل شوقي بصوت يمتزج بمعاني الألم والتمزق والحقد والغضب والانتقام ، (٨٨) : (ما تستعبطش ...ما تعملش أنك ناسي ...مش فاكر العنبر ؟ مش فاكر عُلق الساعة خمسة ؟ مش فاكر دور تسعة ؟ مش فاكر النبابيت ؟ مش فاكر الكرباج ؟ مش فاكر الدم ؟ فين كرباجك وديته فين ؟ فين صراخك يا وحش فين ؟ فين نعل جزمتك الحديد ؟ فين كفك ؟ فين صوابعك ؟ فين النار فين ؟ بص لي وانطق وأتكلم اصرخ زي زمان.سمعني صوتك اصرخ يا عسكري يا أسود بص لي وانطق وأتكلم وصرخ.ما تملش ناسي وإن عملت أفكرك حالا أفكرك.

ولا أعرف كيف استطاع شوقي في تلك الومضة المتناهية الصغر من الزمان أن يخلع جاكتته وقميصه ويرفع فانلته ويكشف ظهره ويا لهول ما وقعت عليه أبصارنا لم يكن في ظهره مكان واحد له شكل الجلد أو مظهره . كل جلده كان ندوبا بشعة تمتد بالطول والعرض وتتجمع في هضاب مندملة عن مناطق غائرة في قاعها تكاد تبدو عظام الضلوع . مشهد بشع يجعل القشعريرة تسري في جسدك لا لمجرد مرآه وإنما لتساؤلك عن القسوة المتوحشة التي أحدثت كل ما تراه . لكأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره في ظهر شوقي نهشا وتقطيعا وفتكا) .

ولم تعد عضلة في جسد شوقي لم تنفجر بالغضب والثورة ، تصرخ بكل هذا الألم الذي هتكها ردحًا من الزمن وظلت تعاني منه ،وشارك الأعضاء في الصراخ العظامُ والعروق والدم ، أصبح شوقي كتلة نار من الصراخ والحقد ،هذا الصراخ استحال إلى عواء حقيقي ، ألم يتحول شوقي – من خلال العذاب الواقع عليه – إلى حيوان يتلقى العذاب والألم في صمت قاتل وسكون مميت .

وكأن عباس وقد رأي ما جنت يداه مجسدًا أمامه ، فأراد أن يهرب ، وليس هروب من مكان إلى مكان آخر ، ولكنه الهروب من الوجود ، نفس الهروب الذي كان يحاوله شوقي ، أن يقلص وجوده ويظل يتقلص حتى يختفي أو يذوب في الأثير (٩١) : (أما عباس فقد ظل يسكب على شوقي نظراته المميتة ولا يتحرك له جفن ولكن ما كاد صراخ شوقي يستحيل إلى عواء حتى رأينا كأن بارقة إدراك قد تحركت فوق سطح العيون الميتة أعقبتها في الحال اهتزازات عاصفة لم تلبث أن تكشفت عن نظرة ذعر راحت تتعمق وتتعمق وتصبح رعبا هائلا مقيما ، رعبا جعل الحياة تدب أيضا في الجالس المكوم نصف جالس وتدب على هيئة خوف ، فبدأ ينكمش على نفسه وينكمش ويزحف بزوجته بعيدًا إلى آخر الفراش ، ويصغر حجمه ويتكور ولم أكن أتصور أن الإنسان في انكماشه يستطيع أن يصل إلى هذه الدرجة من الصغر ، الدرجة التي تكاد تعتقد معها أنه لو استمر ينكمش بنفس السرعة لتلاشى واختفت الكرة الإنسانية عن الوجود ...وربما رغبة هذا وانكماشه هو الذي جعل شوقي يطارده ويتقدم في اتجاهه ويتضخم كلما رآه وينكمش ويقترب كلما ابتعد ، مطاردة لم يوقفه الفراش فقد ارتقاه شوقي واستمر يتعقبه ويصرخ فيه ويعوى ولا يكف ، وربما رعبه الهائل هو الذي حال من ناحية أخرى بين شوقي وبين الانقضاض عليه وإزهاق روحه) .

ولم يتذكر عباس شيئا إلاَّ حينما سمع عواء شوقي ، كأن العواء هو المفتاح الذي فتح أبواب عالم عبا، عالم الكلب والذئب وكل تلك العائلة من الحيوانات الضارية المتوحشة ، من الحيوانات التي لا تتورع أن تنهش لحم بني جنسها بل وتفتك به ، عالم الضارب فيه ذئب يجد لذته ومتعته في التدمير والتمزيق والتخريب والمضروب فيه أفضل أنواع الحيوانات ، فهما لا يفهمان غير العواء لغة ، والهبهبة معنى ، وارتفع عواء وهبهبة عباس ، بل استطال فمه وكأنه أصبح فم ذئب شرس وأصبح ذئبا حقيقيا يود الافتراس ولعق الدماء ، وبالفعل يفترس أقرب الناس إليه زوجته ، (٩٢) : (أطبق الفم المفتوح على يد الزوجة القريبة منه ، وبدأ يلوكها بين أسنانه ويضغط كمن يهم بالتهامها واحتملت الزوجة قليلا وهي ترجوه أن يتركها ولكننا وجدناها فجأة – وكأنما أدركت أن يدها على وشك أن تتمزق – تطلق صرخة أعلى من كل عواء وهبهبة تعقبها بصرخات سمعنا على أثرها دق الجيران على الباب) .

وحينما لا يجد ما يفترسه يفترس نفسه ، وإن كان قد افترس نفسه من قبل حينما اعتدى على إنسان وأخرجه من جنس الآدميين بتعذيبه ، وأنزله إلى درك الحيوانية .

وقيام عباس بتعذيب نفسه ، هو نوع من عقاب الذات للذات ، على ما أنزلته من عذاب بالآخرين ، فهو لم يعد يطيق هذا الوجود المسمم بنار الذنب والمشتعل بتأنيب الضمير ، (٩٣) :

(لولا أن عباس أهوى بفمه على لحم ذراعه النحيلة التي كانت تبدو من كم الجلباب الممزق ، وظل يضغط وينظر إلينا بعيون ملتهبة تحترق ، ويضغط ولعابه قد غطى الذراع العارية ومن كثرته بدأ يتساقط ويسيل ، وهو لا يكف عن النهش والضغط وكأنما هو لا يحس أو يتألم أو كأنما الألم يدفعه إلى مزيد من الهياج وغرس أسنانه في اللحم وكان لابد أن يحدث ما حدث وأن تدير النساء وجوههن وأن ندير وجوهنا معهن ، ما عدا شوقي فقد لمحته لا يستدير وغنما يظل يتفرس في وقفته مستمتعا بما يراه ، وحين عدنا مرة أخرى نواجه عباس تبين أننا لم نكن قد تحاشينا الكثير باستدارتنا ، فقد وجدنا وجهه قد ارتفع عن الذراع حقيقة ، ولكن الدم كان يتساقط من فمه ويختلط بلعابه إذ بين أسنان الفم التي كانت انفرجت عنها الشفاة كانت هناك قطعة لحم مدماه ، القطعة التي نجح في نهشها من ذراعه ، ذراعه التي كانت لا تزال في مكانها فوق ركبته ، ومكان العضة فيها قد أصبح جرحا متهتكا بشعا ، وكان عباس الزنفلي لا يزال رغم وجود قطعة اللحم بين أسنانه يعوي ويهبهب بصوت مكتوم وكأنه ينزف من صوته والدم قد بلل عوائه وخنقه) .

وكان – ما أصاب عباس – جزاء وفاقا لما أوقعه بشوقي وبغيره ، فقد هان عليه أكل لحم الآخرين ، فهان عليه أن يأكل لحمه (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ، وكما قال شوقي للقاص بعد ذلك وكأنه أدرك هذا القانون الأزلي ، (٩٥) : (أتعرف أنك حين تؤذي غيرك تؤذي نفسك دون أن تدري ؟ ومرة يسرح ويضحك فجأة ويقول : دع الضارب يضرب ، فيده التي تضرب تمتد أيضا إلى ذات نفسه) .

وكما قالت أيضا (أم على الحسادة) أثناء خروج القاص والتمرجي وشوقي من حجرة عباس ، (٩٧) : لحم الناس يا بني .اللي يدوقه ما يسلاه . يفضل يعض إنشاء الله ما يلقاش إلاَّ لحمه ، ألطف يارب بعبيدك

ه-الصــدع:

الإنسان لوح من زجاج ، قد يكسر ، ومع ذلك لتلملم لقطع بعضها إلى بعض وتعيد اللوح الزجاجي ، ولكنه لن يعود كما كان أبدا ، فهناك الذي لن يجبر فالإنسان كائن معقد ، ليس من اليسير فهمه أو إرجاع تصرفاته لدوافعه الأولية . إذا هدمت مقوماته الإنسانية ، وقوضت دعائمه البشرية ، فإعادة بنائه تعد من المحال ، وإن حاولت فتلك المحاولة مقضي عليها بالفشل منذ البداية، وقد حدث صدع في شخصية شوقي ،وكان

يظن القاص أنه بعد أن شاهد شوقي ما حدث لعباس وما انتهى إليه الأمر أنه سيشفى مما به ، ويعود ما كان في بادئ الأمر إنسان سوي له تطلعاته أهدافه ويستقبل الحياة بكل جرأة وإصرار ولكنه اكشف أخيرًا خطأ ظنه وأن شوقي سيظل على ما هو عليه ، (٩٦): (وفيما عدا هذا كفتني بضع جلسات مع شوقي أن أؤمن أن الحالة التي رأيته عليها وملأتني بالأمل كانت كصحوة ما قبل الموت ، وأن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه طريق لا يمكن الرجوع منه ، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره ، أجل ! أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبدا مثلنا بشرا مرة أخرى) .

وتلك الشخصية تحيا الحياة ، وكأن هناك قوة تدفعها لذلك ، بدون أن يجد لتلك الحياة غاية أو هدف ، لا يشعر بالوجود لا يستمرئ شيئا من طاقاته ، منعزلا عما حوله ، سلبي ، لشيء يستثيره أو يحركه ، وكأن الوجود أمامه موات ، كما مات الإحساس بالوجود داخله ، فليس هو بالميت ولا هو بالحي ، فقد وصل إلى منطقة انعدام الوزن ، الموجود فيها لا يشعر بقوة تدفعه إلى الأمام ولا إلى الوراء ولا ترتفع به ولا تنزل ، فقد سحقته تلك القوة العمياء التي لا تجيد سوى اغتصاب الحياة ، وقذف الظلام والخوف والرعب في قلوب البشر .

الفصـــل الرابـــع :
رجــال وثــيران

مسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل .

نظامية الحياة .

دور الجمهور في الحفاظ على القيم .

يوتوبيا (الألرينا) .

ثمن البطولة .

فردية البطولة .

ثورية المصارع .

المركز والمحيط وحرية الإنسان .

قدرية المصير .

أـمسيرة الإنسانية وصراع القوة والعقل:

لقد شغف الفنان العالمي (بابلو بيكاسو) دونا عن بقية الفنانين بالتعبير عما يحدث في (الألرينا) من صراع بين الثور والإنسان (الميتادورز) ، ولابد أن ما يحدث في (الألرينا) قد اتخذ أبعادًا أعمق وأشمل من أنها مجرد لعبة أو تسلية وترفيه ، فهي – في حقيقتها – ترمز إلى صراع الإنسانية عبر مراحلها الطويلة خلال طريق التقدم والتحضر ، ذلك الطريق أو تلك المراحل كانت صراعًا مطردًا بين القوة الغاشمة المتمثلة فيما حول الإنسان من ظواهر طبيعية وبين عقله ، وكان الانتصار والظفر – رغم ضخامة وقوة وشراسة ما حول الإنسان – في جانب الإنسان ، فقد استطاع بتلك القوة السحرية المتمهلة المتأنية أن يتغلب على الطبيعة ويستأنسها ويسخرها .

وفي بداية الرواية تنشأ علاقة بين القاص و (الميتادورز) لم يستطع القاص أن يضع لها اسما ، أما لماذا نشأت تلك العلاقة بينه وبين تلك الشخصية بالذات ؟ فيفسرها القاص بقوله ، (٨) : (وربما الذي استوقفني في الوجه أنه الوحيد المتميز الشحوب وكأنه من نوع خاص ، ناتج عن إحساس خاص لا يشاركه في سواه ، وكأنه وحده هو الذي يدري ، ووحده الذي يتوقع ، وحده الذي حين تراه ينتقل إليك علمه ، وتبدأ أنت الآخر تدرك وجود شيء في الجو والمكان شيء آخر غير الناس والازدحام

وشمس ما بعد الظهر وضجة (الفييستا) والاحتفال ، شيء حاضر خفي داكن رابض ، ينتظر اللحظة المناسبة ليعلن حتما عن وجوده وينقض وفي الحال ودونا عن ثلاثين ألف إنسان ، ويمثل شرارة التماس ولابد أيضا أن يدق قلبك دقة الخوف ؛ إذ تدرك على الفور إدراكا غريبا مبهما وكأنما يهبط كالإلهام أن ثمة شيئا غير عادي سيقع اليوم لصاحب ذلك الوجه ،وأنه أبدًا لن يغادر (الإلرينا)بنفس الحال التي جاء بها .

هذه الدقة المفاجئة وما صاحبها من انزعاج صغير عابر حددت لحظة خطيرة غريبة في حياتي ، لحظة التقائي للإنسان جديد لم يكن منذ ومضة يعنيني أمره ، فغذا بالدقة تبدأ معها علاقة وتتعدى العلاقة بسرعة مراحل التعارف الأولى إلى مرحلة الصداقة بل تتعداها إلى ما هو أكثر ، مرحلة القلق العظيم على الصديق ، والتتبع المشفق لخط مصيره) .

وبدأ هذا الخيط الرفيع أو الوتر المشدود بين القاص وتلك الشخصية حينما يشد الكاتب من أعماقه حينما يشرف (الميتادورز) على الموت بطعنة من طعنات الثور الهائج ، وحينما يترك القاص يأخذ أنفاسه ، حينما ينتصر المصارع في جولة من جولاته مع الثور ، وربما تكون تلك العلاقة – من جانب القاص – لأن تلك الشخصية تحمل قدرها فوق يدها ، ومصيره محدود بحيز زماني ومكاني محدود . نعم ، فمصائرنا كلنا محددة ولكنها مجهولة لنا ، أما هو فعلى الأقل يخالجه شك في أن نهايته قد تكون على قرون الثور . وإنسان في مثل هذا الموقف لابد وأن يسترعى ويستحوذ على اهتمامنا ، فالمصارع يدخل في صراع بين قوة الثور وبين عقله وذكائه ، ولن ينتهي الصراع إلاَّ بموت احد الطرفين ، الثور أو المصارع ، هذا الصراع انتقل من ساحة (الألرينا) إلى صدر القاص وبين الثور والمصارع إلى نفس القاص متمثلا في خوفه وقلقه على مصير المصارع .

وحينما رسم المصارعون علامة الصليب قبل بداية المصارعة استوقفت تلك الحركة القاص ، فقد أخذها أول الأمر كعادة من العادات الكاثوليكية يؤديها الإنسان بدون وعي منه ، إلاَّ حينما نظر القاص إلى صديقه المصارع هذا ، فقد لمح : (كان ثمة ابتهال حقيقي واضطراب لابد علت معه دقات قلبه ، وخيل لي أن لونه ازداد شحوبا)؛ إذن فهو يرسم تلك العلامة مدركا لأبعادها ، مدركا أنه قد لا يخرج من الحلبة إلاَّ محمولا وقد فارق الحياة ، حينئذ أدرك القاص أم ما يجري أمامه ليس لعبة ، وإلاَّ أين تلك اللعبة التي قد يخسر الإنسان فيها حياته ن إذن فما يحدث ليس بالهزل وإنما الجد بعينه وكل شيء حقيقي في الحلبة ، (١٨) :

(إن مجرد تسمية الشيء باللعبة - حتى ولو كانت اللعبة مصارعة ثيران أو وحوش - يعطينا في فهمنا لونا ما ، معنى غير جدي جدية تامة ، حتى لو كانت خطرة فهي ليست سوى لعبة ، واللعبة لا تقترن في تفكيرنا باللعب فقط ، ولكن أيضا بالهزل ، ولسبب ما. هناك. فيما وراء كل ما كنت أراه من جدية وخطورة واستعدادات كانت فكرة أن المسألة كلها ليست بالوعورة والخطورة التي صوروها لنا في السينما والروايات، ولابد هناك من طرق متفق عليها ومتبعة للتقليل من خطورتها في الباطن مع إضفاء ثوب الرهبة عليها من الخارج ، هذه الحركة التي لمحتها في آخر لحظة ، جعلت الشك يبدأ يتسرب إلى في اعتقادي ، وجعلني أتساءل : أليس من المحتمل أن تكون المصارعة مصارعة حقيقية فعلا ، بلا أي عبث مما اعتقدته ، أو اتفاق ، وأن الناس جميعا يأخذونها جدا ما عداي ؟

تساؤل راحت الأحداث المتعاقبة تدعمه من ناحية ، وتنفيه من نواح ، وظللت لا أجد البرهان الدامغ الذي لا يقبل الشك ولم أكن أعرف ما ينتظرني يومها)؛ إذن ما يحدث أمامه ليس باللعبة على الأقل ، وهناك احتمالات كثيرة ترجح جدية ما يحدث ، لذلك فإن مفردات الموقف وجزئياته أخذت أبعاده الحقيقية فالسيف بيد المصارع سيف حقيقي ، والصراع حاد وشرس

وقد يخرج المصارع مقتولا ، والثور أخذ صورة القوة الغاشمة الظامئة إلى الدم ، والجائعة إلى جسد المصارع ، فهي تتوق إلى أن تمزقه شر تمزيق ، (٢٢) : (هذا المبعوث الداكن يمثل كل ما في الحياة من قوة وتعطش للعدوان والرغبة في التحطيم والدم والتخريب ، هذا الذي من فرط سرعته ، وتجبره لا يكاد يستقر في مكان ويتنقل من محيط الحلقة إلى محيطها الآخر قبل أن تدرك أنه انتقل .هذا الموجود بكل مكان ، المتحرك كالبرق كالضوء كالوباء في كل اتجاه حركة بلا هدف إلا الحركة نفسها ، ورغبة في التخريب والتحطيم بلا هدف إلا التحطيم ذاته والتغلب على كل ما يقف في طريقه صديقا كان أم عدوا بلا هدف أو حكمة إلا هدف التغلب ذاته ، كتلة الحياة المركزة تركيز الجن في القمم المنطلقة المتفجرة بلا غاية أو هدف تجسد لنا ذلك المعنى الذي كثيرا ما تدولناه حتى اعتدناه .. تجسد لنا كلمة الوحش وترينا السبب والدوافع التي حدت بأجدادنا الأول أن يطلقوها على بعض أعدائهم من الحيوان) .

ب-نظامية الحياة:

ثم ينتقل القاص بعد ذلك إلى مستوى آخر من تأملاته ، فهو يدرك أن تلك القوة العظيمة والاندفاع الأهوج يحكمه نظام ، وطالما أن النظام الذي يحكم هذا الحيوان لم يختل ، فالثور هو الثور بكل ما يتفجر في جسده من قوة وغضب وانفعال ، أما إذا

اختل هذا النظام الدقيق الذي يبقى الثور حيا ، فسوف يقضي على النظام ويترك الثور بدون حياة ، ليبدأ نظام آخر في العمل ، الفناء ، (٢٧) : (نفس الجسد بنفس العضلات والقرون بنفس القدرة والطاقة وقد أصبح فاقدا كل القدرة وانتهت حركته إلى الأبد ولماذا ؟ لأن قطعة معدن صغيرة دخلت جوفه فاختل نظام الحياة داخله وتوقف . أجل نظام الحياة . إنه لشيء مضحك حقا أن تعرف أن تلك الطاقة الحيوية الهائلة التي كانت تبدو على هيئة فوضى كاملة تريد أن تعيث فسادا في كل شيء ، وتخل نظام كل شيء وتحيل كل شيء إلى مزق ، هذه الطاقة الحيوية المتفجرة لتشيع الفوضى في كل ما حولها مصدرها نظام بالغ الروعة ، دقيق لولاه ما استطاع أن يحرك ذيلا أو ينش ذبابة أو يأخذ شهيقا ، نظام يخشى أن تخدشه بقطعة معدن أو دبوس لكي - من شدة إتقانه- يختل وينتهي كنظام حياة ليبدأ يعمل فيه نظام آخر نظام الموت والتحلل والفناء) .

ليس نظام يحكم الثور فحسب ، بل يحكم كل الأحياء بما فيهم الإنسان ،وإنه لشيء عجيب حقا ، فكل الكائنات الحية محكومة بنظام غاية في الدقة ، هذا النظام يحكم الموجود ، أو هو الصلة بين الموجود والوجود ،وأقل شيء يستطيع أن يخل بهذا النظام كفيل بأن يقطع الصلة التي تربط بين الموجود والوجود

ج-دور الجمهور في الحفاظ على القيم :

للجمهور دور خطير في الحفاظ على قيم اللعبة ، فهو ر يقوم بدور المتفرج فحسب ، بل يقوم بدور الحكم الأول الذي يحافظ على منطق وقيم اللعبة ، ويتدخل إذا رأى ثمة خروجا عن اللعبة ، فيحتج ويعترض إذا ما كان الثور صغيرًا أو ضعيفا ويعترض الجمهور كذلك إذا ما حاول المصارع أن يقتل الثور مخادعة أو غدرًا وهناك دافعان يدفعان الجمهور لاتخاذ هذا الموقف :

الأول : رغبته في الحصول على أكبر قد ممكن من المتعة وهذا لن يتيسر إلاَّ إذا كان الطرفان – الثور والمصارع – متعادلين في القوة ،وبهذا التعادل بين الطرفين تأخذ اللعبة أبعادها و رموذها ، (٣٣) : (إنه يريد أن يظفر بأقصى متعة وهو لا يفرق حينئذ بين الطرف الإنساني أو الحيواني في هذه اللعبة ، كل ما يهمه أن يكون الطرفان قويين ، وأن يكونا أيضا متعادلي القوة بحيث لا يحظى أحدهما بانتصار سهل على الآخر

وبحيث تطول المعركة وتصعب وبحيث يحشد كل طرف منهما أقصى ما لديه من طاقة وفن ، ومصارعة الثيران قد تبدو للأجنبي لعبة يقتل فيها الرجل الثور أو تحدث الكارثة ويقتل الثور الرجل ، ولكن الجمهور الأسباني لا يأخذها هكذا أبدا إنها عنده مباراة بكل ما تملكه الكلمة من معنى مباراة بين القوة الحيوانية الوحشية الغاشمة من ناحية والذكاء الإنساني والرشاقة وسرعة الإدراك والفطنة وسعة الحيلة من ناحية أخرى مباراة بين شجاعة الحيوان اللاواعية وشجاعة الإنسان الواعية ، مباراة بين الحياة في بدائيتها القوية وبينها في رقيها الذي أضعف قدرتها العقلية ، باختصار مباراة بين العضل والقوة.

الثاني: إنه لا يهتم بالوسيلة قدر اهتمامه بالغاية ، فلا يعنيه أن يقتل المصارع الثور ولكن جل اهتمامه هو كيفية هذا القتل بحيث يكون متضمنا كل معاني الشجاعة والبطولة ، (إن معناه هنا أن الغاية في نظر الجمهور لا تبرر الوسيلة وأن يحتمي فارس بالدروع ليطعن الثور المتوحش القاتل في ظهره، وسيلة ليست شريفة من وسائل الحرب ، والوسيلة في الحرب - أي حرب - لا تقل أهميتها ومعناها عن الهدف من الحرب نفسها ، إنه احتجاج ضد الخداع والجبن ، أن للجمهور دورا آخر في المباراة دورًا مهمًا ؛ أن يحافظ على القيم ويحرسها ليس مهما في نظره لمن يكون النصرالمهم دائما وأولا كيف يأتي الانتصار).

وعادة أن الإنسان يجب أن يلتزم بالقيم والمبادئ مع أخيه الإنسان ،أما مع الحيوان فالقيم والمبادئ ليست واردة في الأمر ، ولكن حينما يتمسك الإنسان بالقيم تمسكه هذا لا يكون مع الإنسان فقط ، بل مع الحيوان أيضا ، فالسلوك يصدرعنه متسما بتلك القيم سواء كان تعامله مع الإنسان أو الحيوان،كما يقول رسولنا الكريم : (دخلت امرأة النار في هرة.) فهنا يراد بالرحمة أن تكون في جبلة وطبيعة الإنسان تكون ممتزجة بكل سلوك يصدر عنه ، لا يختلف سلوكه باختلاف نوعية الكائن الذي يتعامل معه .

وإذا كان الجمهور في تلك اللعبة ينحاز – بطبيعة الحال – إلى المصارع ضد الثور ، فإن هذا الانحياز مناط بمدى تمسك المصارع بمعاني الشجاعة والبطولة والإنسانية - مع أن هذه اللعبة ليست فيها ذرة واحدة من الإنسانية- وهؤلاء يدفعون المصارع إلى أن يجهز على الثور بسرعة وبدون أن يترك له فرصة أن يتألم أما إذا أخطأ المصارع وأطال مدة التألم ، بأن أخطأ التصويب ، فالجمهور لا يتردد في الانحياز للثور والوقوف ضد المصارع بل قد ينتصر للثور المقتول ، وينظر باحتقار واستهانة للمصارع الحي ، كل هذا لأن المصارع جعل الجمهور يشعر بالألم والإشفاق والرثاء لهذا الثور المسكين ، فهي مشاركة في الشعور والإحساس حتى ولو كان مع حيوان ، فليس هناك فرق بين إحساس الإنسان بالألم وإحساس الحيوان ، بل الأمر مع الحيوان أدعى للرثاء والإشفاق ، ويتغير موقف الجمهور فبعدما كان مع المصارع ضد الثور ،

يتحول ويصبح مع الثور ضد الحيوان ، (٤٣) : (ومن ساحة صامتة كئيبة مليئة بالخزي والتقزز والندم والاشمئزاز وكأنما الجميع حتى المشاهدين قد ساهموا ومنذ هينة في ارتكاب جريمة خلقية شاذة ، انسحب المصارعون كلهم حتى ذلك الذي ذبح الثور فلا انتظار لتحية هذه المرة أو زهو حسبه أنه سيخرج قبل أن يفطن إليه الجمهور ، وينفجر قاذفا إياه بكل ما في متناوله.

وجاءت الخيول الأربعة وأحكم وضع الحبل على قرونه ، وبدأت تجره خارج الساحة ومن أعماق الصمت المخيم اندفع فجأة مواء هذه المرة عميق وحقيقي لا سخرية فيه ولا صفير وظل يشيع جثة الثور حتى غابت بخيولها خارج الساحة ، وكان المواء استهجانا لمقتله ، الطريقة الوحيدة التي يستطيع الجمهور في وقت كهذا أن يبدي سخطه ويصدر حكمه ، الحكم بانتصار الثور الميت على (الميتادور) الحي ، طريقة خيل إلى من صراحتها وصرامتها وقسوتها أن الميتادور لحظتها لابد فضل ألف مرة لو كان هو الميت بهذا التمجيد على أن يكون هو الحي بكل ذلك الاستهجان ، وأي إنسان مكانه رغما عنه لابد يتمنى أن يصبح الميت المنتصر ولا يبقى لحظة واحدة ذلك الحي المهزوم .

إن الهزيمة علنا وأمام الملأ هكذا وبحكم جماعي يصدره الآلاف مرة واحدة ومباشرة الهزيمة التي لا تقبل جدلا ولا تملك أن تبررها حتى لنفسك وما يصاحبها من ذل وخزي أكثر إيلاما من الموت نفسه ، إن فقد الحياة أهون بكثير من الحياة مع معاناتها) .

وتذبذب الجمهور هكذا يضع المصارع في موقف حرج ، فهو أمام أمرين أحلاهما مر ، فإذا أراد مجاملة الجمهور قد يخسر حياته بطعنة من طعنات الثور وإذا لزم جانب الحرص والحذر خسر الجمهور وتشجيعه وعطفه ، وتلك معادلة صعبة تستنفد من المصارع كل طاقاته الجسمانية والعقلية ليحققها ، لأنها في كلا الطرفين خسران.

د- يوتوبيا (الألرينا) :

كل إنسان يصبو أن يعيش في عالم مثالي تحكمه القيم والمبادئ ، ويكون متسما بكل الصفات الحميدة في سلوكه وأفكاره ، ذلك لأن حياة الإنسان الواقعية قد تكون خالية من القيم التي تعطيها نوعا من السمو والرقي ، فحياته مملة مقفرة خاوية ، وكأنها مسرح متهدم مظلم تتردد في نواحيه أصوات البوم والغربان ويقوم الإنسان فيه بدور المنكسر المهزوم الضائع ، لذلك يلجأ إلى الخيال ، ليخلق عالما متألقا يشع بنور القيم والجمال ، ويقوم بدور البطل الذي يجسد كل معاني السمو والرقي ويمتلأ كيانه بحي

وعشق هذا الوجود ، (الألرينا) تمثل – بكل ما تحفل به من ضروب الصراع – عالما مثاليا يجده الإنسان المطحون الذي لم يترك له وجوده الفظ الغليظ فرصة لينشد أي معنى من معاني الجمال في وجوده ، فتقوم (الألرينا) بدور المعادل الموضوعي لتعوض الإنسان عما فقده ، وربما لم يستطع أن يظفر به في حياته وواقعه الجاف (٤٥) : (في هذه الساحة يحاول الناس أن يخلقوا عالما آخر مختلفا عن العالم في الخارج وفي كل مكان ، عا لم الهدف فيه ليس أن تحيا أو تحافظ على وجودك الهدف أن تنتصر ، بحيث تحل كلمات النصر أو الهزيمة محل كلمات الحياة أو الموت ، وبحيث تختلف كل المقاييس تبعا لتغيير هذه القاعدة الأساسية من قواعد الوجود ،وكأن الناس هنا لم يستطيعوا أن يغيروا هذه المقاييس في حياتهم العادية فابتكروا مصارعة الثيران أو تبنوها وجعلوا لها ساحة ، و (أرينا) ومتحفا وعالما كاملا يدخلونه ليحيوا ولو لبضع ساعات كل أسبوع بهذه المثل والقيم ، وبدلا من أن تقرأ كتابا يروي لك قصة بطل لا يهمه الموت أو الحياة بقدر الهزيمة أو الانتصار ، وبدلا من أن تدخل دار للسينما أو مسرحا تطفأ فيه الأنوار وتعيش أو تقنع نفسك أنك تركت عالمك الملئ بالضعف ، وملايين الناس المتشبثين بالحياة – وأنت منهم – تشيث المستميت ، وأصبحت في عالم آخر عالم مخلوق من أناس أبطال لا يتردد أمام أي صراع أو خطر يخضونه وينتصرون فيه أو يهلكون دونه ، بدلا من هذا أوجد الأسبان لأنفسهم هذا المسرح الحي الذي يضم كائنات من الأحياء ، مسرح لا يخدعونك بتمثيل الصراع فيه ، ولكنك تجد نفسك أمام صراع حقيقي لا تمثيل فيه ولا تمويه . الجماهير المطحونة المهزومة في حياتها اليومية المتمسكة بالحياة رغم تفاهتها تمسكا مستميتا لا يخلصها منه سوى قوة قاهرة جبارة كالموت هذه الجماهير تدخل الساحة لتشهد أناسا يستخفون بالحياة إلى درجة السفه إلى درجة البطولة في سبيل أن ينتصروا).

هناك خيوط وثيقة العرى تربط المصارع الفرد بالمجموعة ، فهو لا يخوض الصراع منفردًا وإنما الجمهور يخوضه معه ، والجمهور يشعر بلذة ونشوة النصر ومشاعر البطولة من خلال المصارع فهو لا يجلب النصر لنفسه وإنما لهم ، فهم قد تقمصوه ، إنهم يعيشون الحياة بكل طاقاتها الوجودية ، ويشعرون بها من خلال كل ذرة في كيانهم ، فحياتهم تمر كمر السحاب ، لا طعم ولا رائحة ، وكل فرد كأنه ترس أو مسمار في عجلة الزمان العتيقة ، حتى إذا ما جاء عليه البلى ، جاء دوره في الإهمال والنفي والنسيان ، تمر أيامهم هكذا إلا تلك اللحظات الخالدة ، لحظات الصراع ولحظات الانتصار ، تلك اللحظات تخرج عن الحياة وملل الأيام ، إنها صدع في جدران عالم الكآبة والإحباط ، والخروج إلى عالم متألق فواح بشذى التجدد

والتغيير المستمر نحو الأفضل ، كل تلك المسئولية الثقيلة والخطيرة يحملها على الجمهور على عاتق المصارع ، وياله من تمجيد، وكم من أكاليل الغار والزهور التي يُقذف بها المصارع غذا حقق ما يريده الجمهور ، وكان عند حسن ظنه ، وهذا الخسران المبين والفشل الذريع والحسرة والمرارة إذا ما خيب المصارع ظن وتوقع الجمهور وفشل في المهمة الملكف بها ، فهزيمة المصارع هزيمة لكل فرد من الجمهور ولابد أن يكون هناك مسئول عن الهزيمة ، ولابد أن يكون هناك عقاب ، (ولهذا فالمصارع لا ينظرون إليه نظرة تمجيد منفصلة عنهم ، إن كلا يخوض الصراع المخيف من خلاله ويرسل كل منهم خيطا من ذات نفسه ، وروحه لتتجمع آلافها وتلتقي عند المصارع وبنفسه وبها يخوض المعركة .. يخوضها أساسا لحسابهم وكأنهم أنابوه عنهم ليقوم بالعمل البطولي العاجزين هم عن القيام به ، ولهذا أيضا فما أشد نقمتهم عليه، إذا لم يقم بعمله كبطل إذا عمل حسابا لكيانه المستقل ، ومحافظة عليه ، تهاون في القيام بالبطولة التي وكلوا إليه أمرها .

إنهم لم يجيئوا ليتفرجوا على براعة شاب يصارع ثورًا في حدود أن ظل حيا ولو لم يصرعه ، إنهم جاءوا لينيبوا عنهم بطلا .بطولته أن يواجه المخاطر وينتصر عليها ؛ ولهذا فمتعتهم الكبرى هي حين يحدق الخطر بالمصارع ، وفرحتهم الغامرة ليست هي أن ينقذ نفسه بتجنب المأزق الخطر ، ولكن أن يضع نفسه في المأزق الخطر ، ويخرج منه سالما ، أن ينتصر على الخطر بمواجهته ، وليس بتجنبه ، فهم في حياتهم يفعلون هذا ، هم دائما يتجنبون الخطر ويهربون من المأزق مؤثرين أن يوصوفوا بكلمة الجبن أو الرعونة مع النجاة أو البقاء أحياء ،وهنا يريدون أن يفعلوا ما يحلمون بفعله ،أن يوصفوا بالبطولة ولو كان فيها مواجهة متعمدة للخطر وتعرض أكيد للهلاك .)

لهذا الدور الذي يقوم به المصارع تختلف نظرة الجمهور عليه ، فهو يجسد لهم قيمة البطولة ، مثلهم في هذا مثل الأب الذي لم يستطع أن يحقق هدفا في حياته فسعى أن يحققه ابنه ،وبذلك يحقق هدفه بطريقة غير مباشرة ،فقد أناب الأب ابنه أن يحقق ما لم يستطع تحقيقه ، كذلك الجمهور أناب المصارع أن يحقق البطولة ، (ولهذا فالمصارع في أسبانيا ليس مجرد نجم رياضي ، إنه أولاً وأساسًا بطل شعبي وأداة الشعب للبطولة ، وكما لا يمكن أن تقبل الناس من بطلها السياسي أن يساوم أو يهاون فهي أيضا لا تقبل أبدا من مصارعها أن يقوم بعمل ليس فيه بطولة ،يجب أن يرتدي أجمل الثياب ويبدي إعجابه علانية بأجمل السيدات وأن يتصرف دائما وأبدًا كبطل . هذه الواقعة التي ينفسح فيها صدره ويقذف برأسه إلى الخلف رافعا ذقنه في ترفع

وكبرياء مستفزا الثور هذه الواقعة التقليدية لم تأت عبثا ،إنما وقعة البطل هذه المرة القاتلة إذا هزم أو فشل في إظهار بطولته لم تأت عبثا أيضا فهي ليست هزيمة شخص عادي إنها هزيمة بطل) .

هـ-ثمن البطولة:

ولكن ما الذي يدفع المصارع إلى تلك المغامرة ؟ وما الذي سيأخذه المصارع إذا كانت نهايته على قرون الثور ؟ فلا شيء يعدل حياة الإنسان !

تلك النوعية من الناس لا تريد الحياة وكفى ، وإنما تريد الحياة الممتازة التي يحدسه الجميع عليها ، والكل يشهد برقيها وسموها فوق مستوى الحياة العادية إلاَّ أن ثمن تلك الحياة فادح فهو قد يكلف المصارع حياته وياله من ثمن فادح ويا لها من مكافأة تافهة لا قيمة لها عند من لا يقدر قيمة البطولة ، (وكم هو غريب ذلك التكوين الذي ينشأ عليه (الميتادور) فهو مستعد معه عن طيب خاطر أن يعرض نفسه للحدث الأكبر من أجل (أوليهه) إعجاب قد تكون آخر ما يسمعه ، بل قد ينتهي قبل سماعها .

ولكنه الإحساس بالأهمية ذلك الذي يدفع الإنسان ليقدم على أكبر حماقة في العا لم كي يظفر به ، إنها ليست رغبة في البطولة للبطولة ذاتها أو للشخص ذاته ولكن لإظهارها للآخرين وأمام الآخرين ، فالتمثيل وفيها منه الشيء الكثير ! الفرق أن الممثل هناك (يمثل) الدور بمقدار إتقانه (للتمثيل) وتقمصه لشخصية البطل ينال إعجاب الناس ،وهنا الممثل (يقوم) بالدور فعلا ، ويقوم به في مسرحية لا يتخيلها أحد إنما في واقع كأنه مسرح في حقيقة كأنها خيال ، وبمقدار إتقانه للقيام بالدور وجعله الحقيقة تقترب من الخيال يحظى بالإعجاب . أجل ! الفرق في المسرح وحلبة الصراع أنهم في المسرح يحاولون أن يحيلوا الخيال إلى حقيقة يصدقها العقل بينما في الحلبة يحاولون أن يحيلوا الحقيقة والواقع إلى أعمال خيالية لا يكاد يصدقها العقل ! في المسرح يخلقون من الخيال حياة ، بطلة تدفع إلى كره الحياة الواقعة وتغيرها وفي الحلبة يخلقون من الحياة العادية الخاملة نفسها حياة بطولة حقيقية تدفع إلى نفس الغرض ، ولكنها تدفع إليه بقوة أعظم ومفعول أشد ، إن الإنسان في بحثه الدائب عن بطولة الحياة وحياة الأبطال مستعد أن يستخدم أية وسيلة حتى تلك الملوثة بالدماء ، المقطرة بالجريمة إنه بحث أيضا ،ولكنه يتم بطريقة نيتشوية عارمة القسوة لا يغفر لها إلاَّ أنها عارمة المفعول في نفس الوقت) .

وـفردية البطولة:

ولكن أهناك مفهوم محدد لبطولة ؟ وهل تلك القيمة لم تتغير على مر العصور وتطور الإنسان ؟ وهل القيم التي كانت تحكم المجتمع في العصور الماضية ويعتمد عليها المجتمع في بقائه وتماسكه هي نفس القيم التي تحكم المجتمع الإنساني في العصر الحاضر أم أن يد التطور نالتها بالتغيير والتبديل ؟ تلك القيم تغيرت ، ولكن لم يتغير مفهومها العام أو إطارها الخارجي ، فبقى من العصر القديم إلى العصر الحديث صورة الفرد ينشد البطولة ، ينشد عملا يجسد من خلاله قيم البطولة ، والمجتمع يبارك تلك البطولة التي حققها الإنسان منفردًا بصدقه وسلوكه في موقف في غاية الخطورة ، بدون اتخاذ طريق ملتو أو شيء من هذا القبيل ، (٦١) : (أن يخوض إنسان بطل الوحشي ،ويظل الصراع بينهما سجالا أو يكاد بحيث لا تحدث المواقف الفاصلة نتيجة ضعف أحد الطرفين وإنما تنتج رغما عن الاثنين معا وبسبب تعادل قوتهما في الصراع وحين يحدث هذا الموقف الفاصل الإجباري ويصبح على الإنسان فيه أن ينقذ نفسه كيفما اتفق وبأية وسيلة وإنما عليه أن يختار أكثرها جرأة وحذقا وذكاء ، أن يختار الطريق البطولي وحيث لو نجحت وأنقذ بها نفسه استحق البطولة عن جدارة وبحيث لو فشلت ومات اعتبرت ميتة أبطال وخلد ذكره).

أما في العصر الحديث فقد تغير مفهوم البطولة في ذهن المجتمع ، فماذا يفيد المجتمع من تلك البطولات المنفردة المقتصرة على نفسها ، التي لا يخرج نفعها عن إطار ذاتها ؟ وإذ يصفق المجتمع للبطل لا يصفق له لأنه أضاف شيئا جديدًا للمجموع ، وإنما تصفق لأنه حقق لذاته ما كان يصبو غليه من خلال قيامه بأعمال توصف بالبطولة ، ولكن أصبحت البطولة الحقة هو مقدار ما يضيفه البطل إلى المجموع من نفع وفائدة للمجتمع ، فالبطولة لم تعد متقوقعة داخل ذات الإنسان وإنما خرجت وانفتحت لتعطي الكثير للمجتمع ، ليمنحها ـ بعد ذلك – التمجيد (٩٣) : (إنها تضن بإعجاب له هدف تصفق لمن يقدم لها ببطولته المصلحة والخدمة العظمى الرجل اليوم هو من يفيد الناس بطريقة أو بأخرى ، من يسيطر على اكبر قدر ممكن من مصادر القوى لا ليدخل بها معركة ضد خصوم ولكن ليستعملها ليحقق للناس مطالب وأعمالا عجز غيره عن تحقيقها ، وهي بطولة أرقى ، ففي الماضي كان الشخص يقوم لنفسه ولمجده ولذاته فيصفق له الناس ويمنحونه لقب البطولة ولكننا في عالمنا الحاضر نمنح البطولة لمن يقوى لنا ولفائدتنا).

فإذا كان قيمة البطولة هي ما تضيفه للمجموع ، فما سبب حب الجمهور لتلك اللعبة ، وقيمها تختلف عن قيمه وقيم عصره ؟ وما الذي يجذبه ليجلس ساعات يتابع بكل حرص واهتمام وترقب ، ومشاعره وأحاسيسه للمصارع تارة وعليه تارة أخرى ؟ لابد وأنه – الجمهور – قد آمن بالبطولة الفردية ، ولكن هذا لا يكون إلاَّ إذا تخلى عن الإيمان بالبطولات الجماعية .

في الحقيقة هو يؤمن بالمبدأين ، بالبطولة الفردية حينما يرتد إلى العصر القديم من خلال المصارع ، ويؤمن بالبطولة الجماعية حينما يعود إلى عالمه الحديث أي أنه يؤمن بقيم العالم الذي يعيشه ولو بالخيال ، والذي يجذب المشاهد إلى أن يرتد إلى العصور القديمة ..عصور البطولة الفردية ما يموج ويحدث في الحلبة ، وهذا يكون له تأثير عظيم على عقلية ونفسية المشاهد ، (٩٥) (اندماج لا يحدث في العادة بسهولة ولا يتم فجاة أو ببساطة فهو يستغرق زمنا وشدا وجذبا بين أن تسلم وتصدق وبين أن تستخف وتكذب ، اندماج في الحقيقة لا يتم بإرادتك أبدًا وإنما أنت تجبر عليه ، الحراب والمآزق والدم النازف والخطورة التي تحدق بالمصارع لدى كل خطوة) والمشاهد لما يحدث في الحلبة ليس له خيار في أن يقتنع أو لا يقتنع ، فهو مجبر على الاقتناع والإيمان بكل ما يحدث أمامه ، وما ينتج عنه من تأثيرات في نفس الجمهور ، لأن وسيلة الاقتناع هنا ليست الذي يستطيعه أكثر الناس وأقلهم قوة وإصرارا وشجاعة ، ولكن وسيلة الإقناع هنا هي الفعل ، وكل ما يحيط بهذا الفعل من مخاطرة ومجازفة قد تودي بحياة المصارع في لمح البصر، (٩٥) : (وأن ينادي شخص بمبدأ ما وكلام ربما لا يدفعك هذا للاقتناع به ولكنك لابد تغير من رأيك حين تراه يخوض المعارك الداهية من أجل هذا المبدأ فيعرض نفسه لخطورة الموت ببساطة دفاعه عنه) .

وهذا الاقتناع بداية لصراع حاد بين القيم التي تحكم اللعبة ، وكلها قيم سامية وبين عالمه التافه ، فهو ينشد هذا العالم المثالي الذي يعتمد أول ما يعتمد على قيم البطولة والشجاعة والجرأة والمواجهة ، وهو حين يقارن بين العالمين يصاب بخيبة أمل ، فالعالم الذي يعيش فيه في الحاضر خال من كل معاني البطولة لذلك فليس أمامه إلى الذهاب أو الرجوع إلى العالم القديم من خلال حلبية الصراع ، (٩٧) : (أولئك الذين يغادرون (الألرينا) ثمة زلزال قد حدث لعقولهم تحطمت على أثره أشياء في تفكيرهم وارتبكت أشياء يخرجون وليسوا هم نفس الأشخاص الذين دخلوا ! لقد دخلوا مجرد قادمين من عالم الناس الكثيرين الصغار حاملين قيمه ومواصفاته للبطولة وها هم قد خرجوا وقد أتيح لهم أن يحيوا في عالم آخر ملك عليهم تفكيرهم بحيث لا يستطيعون التخلص من أثره وبحيث يقضون أياما كثيرة بعدها طلاب بطولة على نسق التي رأوها.

وباحثين عن أبطال ومخاطر وأعمال مجيدة تشيب لهولها الولدان ، وكأن الألرينا بالنسبة إليهم اكتشاف في عالم هم يحتقرونه ويشمئزون من علاقاته البشرية ومخازيه الكثيرة وضعف الرجال منه هاهم يساقون حيث يجدون في تلك الواحة نموذجا حيا صادقا لعصر بطل ، فتسكرهم النفحات ويتمنون أن يبقوا إلى الأبد هنا ، أو حين يضطرون إلى مغادرة الساحة إلى إحالة عالمهم الحاضر كله ليصبح على شاكلة تلك الواحة) .

ن-ثورية المصارع:

وإذا كان البعض يخرج من (الألرينا) وهو متخم بالإعجاب بتلك القيم العظيمة ، ثم شيئا فشيئا وتحت نيران الواقع المعاش ، فإن هذا الإعجاب يذوب وينمحي ولا يبقى له إلا ذكرى تراود هذا الذهن الكليل والخاطر العليل ، إلا أنهم يخرجون وقد حفرت أحداث الألرينا في نفوسهم أثرًا لا يمحى ويظل خيط الإعجاب والتعلق بالحلبة موصولا لا ينقطع ، بل يصل الأمر أن يتمنى أن يكون واحدًا من المصارعين ففي داخل الحلبة يجد الشخص كل ما ينشده من أحلام وأمنيات ، فالمصارع حينما يحمل قدره على يديه ويصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت في كل لحظة يخطو الثور بقرونه المشرعة نحوه ، ولهذا يجبر المصارع المجتمع على احترامه بل السعي إليه والتصفيق له ، بتلك الوسيلة المحفوفة بالمخاطر وبالموت يصل المصارع إلى ما يريده من اعتراف المجتمع به ، أو يصل إلى الوجود المنشود ، (٩٩) : (إنهم جميعا أبناء فقراء وأحيانا بلا آباء ، خرجتهم طفولة محرومة وصدهم وعادهم المجتمع صبية وشبابا ، وفي المصارعة عثروا على أنفسهم ،على الوسيلة التي يستطيع بها الشباب النكرة اليتيم أو ابن الحرام الجائع العاطل أو يفرض نفسه على المجتمع بكل ملايينه وثرائه وطبقاته ، وكما يأتي الانتصار و من ثمة البطولة في المصارعة باختيار الموقف الأخطر ووضع النفس فيه ثم التغلب عليه بعد هذا و اقتحامه ، فهم أيضا في سبيل فرض أنفسهم على المجتمع الذي حرمهم من كل شيء يختارون الطريقة الأخطر ..أخطر طريقة العمل كمصارعي ثيران ، ذلك الذي يعرضون أنفسهم فيه للموت الكيد كل لحظة ثم لا يموتون ، يقهرون الموت وينتصرون وينحنى لهم المجتمع معترفا ومتحمسا ومصفقا) .

ق-المركز والمحيط وحرية الإنسان:

والإنسان لا يتسلح بسلاح العقل فقط في صراعه مع الثور ، بل هناك ما يوازي أهمية وخطورة العقل ، بل قوة وتأثير العقل متوقفة على هذا الامتياز وهو امتياز الحرية ، فالذي يميز الإنسان عن بقية الكائنات ما يتمتع به من حرية فهو ليس مجبر على السير في طريق رسم له من قبل وإنما له مطلق الحرية في الاختيار ولديه بدائل متعددة وكثيرة ، يختار من تلك البدائل ما يهديه إليه عقله وأشار القاص إلى هذا الأمر ، بأن المصارع يقف في نقطة المركز من الدائرة وهذا يتيح له أن ينتقل إلى أي

مكان بدون قيد وبسرعة شديدة ، أما الثور فغير متوافر له الحرية أو الموقع (الاستراتيجي) ، فالثور مقيد في حركته ،حركته محيطية أو دائرية ، وتلك نقطة ضعف في الثور تقابلها نقطة القوة لدى الإنسان ، (٨٢) : (قدرة الإنسان على أن يستدير حين يريد في نقطة ، وعدم قدرة الثور على الاستدارة ، هذا الفرق بين النقطة والدائرة بين المركز والمحيط ، هو الذي يصنع منطقة الأمان التي يحمي بها المصارع ويضمن ضمانا أكيدا ألا يمسه الثور طالما هو داخلها لا يتعادها . وكل ما يفعله ليحقق هذا الغرض أن الثور حينما يقبل مهاجما وهدفه العباءة الحمراء يظل المصارع واقفا في مكانه ثابتا إلى أن يصبح الثور على مسافة نصف قطر الدائرة التي يصنعها الثور إذا دار حول محوره أي الدائرة الكائنة بين ساقيه الأماميتين والخلفيتين.

على المصارع أن ينتظر إلى أن يصبح الثور منه على هذه المسافة لأنه لو تحرك والثور على بعد أكبر ففي استطاعة الثور أن يغير اتجاهه وينحرف ويصيبه ، أما حين تكون بينهما هذه المسافة وينحرف المصارع فإن الثور إذا انحرف فهو لا يستطيع مطلقا أن يصله أو يصيبه لأن الثور حينئذ يكون قد اجتاز المكان الذي انحرف إليه المصارع حتى أصبح المصارع يواجه منتصف بطنه ، ويعرض أن الثور استطاع أن يوقف اندفاعه فورا فهو لا يمتلك أيضا أن يصيب الرجل وعليه لكل يفعل أن يستدير ليواجهه برأسه) .

فلا فائدة ولا جدوى من العقل بدون الحرية ، وكأن العقل والحرية لفظان متلازمان ، لا يمكن تخيل أحدهما بدون الآخر ، فلن يخرج العقل طاقاته المكبوتة ويغير ويطور إلا في جو مشبع بالحرية ، فكل الكائنات لها عقل ، وتستخدم عقلها كما يستخدمه الإنسان ، ولكن الإنسان منح الحرية وهي ليست متوافرة للكائنات الأخرى ، وبالعقل والحرية استطاع الإنسان أن يبني حضارته ويرتقى درجات واسعة وكثيرة في سلم التطور والتقدم .

ك-قدرية المصير:

أوثق الصلات تلك التي تنشأ بين إنسا وآخر إثناء مواجهة الإنسان قدره ومصيره ، فتلك أحرج وأدق اللحظات المصيرية ، وليس مهما أن نضع اسما لتلك الصلة ، أو أن تكون متبادلة بين الطرفين؛ وقد نشأت علاقة بين القاص والمصارع ، وقد تعرضت تلك العلاقة للتوتر والتطور باطراد الأحداث والمواقف في حلبة الصراع . والخط الدرامي الذي بدأ أول الرواية بتوجس القاص أن اليوم سيكون نهاية المصارع ، وحتى التوجس من جانب القاص هو الذي أوجد تلك العلاقة بين القاص والمصارعة .

ففي بداية الأمر أوشك المصارع أن يلقى حتفه ، حينما نهض الثور فجأة وقد أوشك على الموت حينما اخترق سيف المصارع صدره ، وعندما نهض الثور متجها إلى المصارع اشتبكت ثياب المصارع بقرون الثور وألقاه الثور أرضا ن واستطاع المصارع أن يتفادى – بعد ذلك – القرون القاتلة ، وبالرغم من أنه سقط بعد ذلك ووقف مواجها للثور ، إلا أن السقطة الأخيرة كانت بمثابة استسلام من المصارع لقرون الثور ، فقد كان هناك متسع من الوقت ليقف المصارع لمواجهة الثور ، ولكنه لم يقف ولم يواجه الثور ، أما لماذا لم يقف ولماذا لم يقاوم ، فهو قدر المصارع أن تكون نهايته في تلك اللحظة وفي هذا المكان وبذلك السبب وكأن المصارع قد عرف أن تلك اللحظة لحظة المصير ، وأن هذا قدر لا فرار منه ولا مواجهة إلاَّ بالاستسلام والخضوع ، هي نفس اللحظة التي مرت بها (عزيزة) حينما استسلمت (لمحمد بن قمرين) في رواية الحرام ، وأطلق القاص على تلك اللحظة (سهم الله) فهو القضاء ولا رد ولا مقاومة لقضاء الله ، فكل مقاومة الإنسان والقدرة على الهرب تختفي ولا يبقى إلاَّ الاستسلام المطلق لقدره ، (١٢١) :

ولكنه لم يقف ولم يعتدل ولا حتى رفع ذراعا أو حرك ساقا ، رقدة ولو أنها لم تأخذ وقتا إلا أنها أثارت استنكارا فقد أحس الجميع أنها رقدة استسلام غريبة للثور القادم المنقض أو بالأصح لما وراء هذا الثور القادم المنقض وكأنما بفعل صاعقة وجدانية شاملة مكتسحة في ذلك الجزء من الوقت أحسست لقرط تآزري معه في معركته لفرط تبني لموقفه ، لقوة الخيط الذي يصل بيني وبينه والذي كاد يسحب منى الروح لتحل بجسده أحسست وكأنما الشلل الذي انتابه قد شلني أنا الآخر وأصابني . شلل لا تفسير له ولا تبرير ، شلل ساعة حدوثه لا تستطيع أبدا تبينه أو إدراكه ، لا تحس به إلاَّ هناك حينما تجلس مثلي على مكتب ، تستعيد ما حدث وأمامك الوقت للتأمل والتحليل والتجديد لطالما سمعت عن تلك اللحظة وقالها الناس أمامي وسخرت من قولهم ، تلك التي يقولون عنها أن سهم الله قد نفذ فأوقف التفكير وشل الجسد وأعمى الروح.

وكان هناك علاقة وطيدة بين القاص وبين المصارع ، تلك العلاقة أملت عليه الشعور بالخوف والهلع والإشفاق على مصير المصارع ، ومثل تلك المشاعر أو تلك العلاقة لا تنبت إلا حينما يتعرض الإنسان لتلك المواقف الفاصلة التي تحدد بقاءه أو عدم بقاءه ، والمشاعر هنا لا تختلف إن كان هذا الإنسان أخي أو ابني أو صديقي أو لا تربطني به أي علاقة ، فهذا لا يؤثر في حدة المشاعر وكثافة الإحساس ، فتلك الوشيجة التي تربط بين إنسان – أي إنسان – وإنسان ، تفرض وحدة الإحساس فما يصيب فردا من الجنس الإنساني كأنه أصاب الجنس كله ، (١٢٥) :

(القوة الغاشمة الجاهلة الحمقاء هي التي تفتك ، والضحية هي الكائن الإنسان الراقي المشاعر المرهف الراقد تحت رحمة الوحش الذي لا يرحم ، كم بدا لي البطل ضعيفا في تلك اللحظة ، طفلا ضنى عزيزا .. كم غلت في عروقي دماء أعمق وأقوى القرابات ، قرابة الإنسان البشري بالإنسان البشري ، تلك التي تدفعنا بلا وعي أو إرادة لنجدة المأزوم إذا استغاث وحتى إذا لم يستغيث ....لم يكن ما كنت أحسه من هلع ليختلف كثيرا لو أن المطعون كان ابني أو أخي أو أبي ، فقد كنت في أقصى درجات الهلع وأقصى درجات الغضب وبآخر ما استطعت من حزن كنت أضيق ، وبأقوى ما أستطيعه من هلع كنت أحقد على عدو الميتادور وعدوي وعدو كل من في الساحة وعدو البشر .. القوة القاهرة العمياء الغاشمة - أية قوة عمياء غاشمة - وليس عليها هي بالذات ولكن عليها حين نراها أقوى بكثير منا وأقدر ، حين نراها في انتصار عارم ملموس ونحن في هزيمة ساحقة باردة واقعة).

ويحمل المصارع إلى المستشفى وهو متأرجح بين الحياة والموت ، وتمضي الحياة ، ولا يعبأ أحد بما حدث فكل المتفرجين في (الألرينا) غادروها بدون أدنى اهتمام بمصير المصارع ، متناسيين أن ما لقاه المصارع هو نفسه ما قد يلقاه أي إنسان.

فذلك الإنسان الذي تحدى الطبيعة وانتصر وبنى وشيد وصعد وغاص ، وهذا التناسق في التكوين والجمال في الشكل والقدرة على التفكير والابتكار في التغيير هذا الكائن لا يملك مصيره ، والقاص إذ يفكر في هذا يحمل طاقات من الحزن لا يجد لها منفذا ، فهو لا يملك أن يفعل شيئا ، (١٣٨) : (ما هذا الجنون ؟ ولماذا أحمل وحدي تلك الجنازة السوداء الخانقة في صدري ؟ وهل أنا مسئول عن أرواح الناس وما يحدث لهم ، وماذا كان باستطاعتي أن أفعل ولم أفعله لأوقف الكارثة ؟).

القاص لا يحزن على مصير المصارع ، ولكنه يحزن على مصير كل إنسان يختار كل شيء بمطلق حريته ويملك كل ما حوله ، ولكنه لا يملك تقرير مصيره ولا يعرف متى ولا أين سينتهي وجوده.

الفصل الخامس :
نيويورك (٨٠)

صدام حضاري

الإنسان

المال

الوجود الداعر

القيم

١ـصدام حضاري:

كما تجمع قطرة المياه كل خصائص وصفات المحيط المجلوبة منه ، كذلك يحمل الفرد كل خصائص الحضارة التي ينتمي إليها ، فهو لسانها المعبر عن كل ظواهرها و خوافيها.

فإذا ما التقى شخصان كل منهما ينتمي إلى حضارتين مختلفتين فسيحدث بينهما صدام ن وهو في حقيقته ليس صدام شخصين بقدر ما هو صدام حضارتين ، كل منهما يريد أن يحتوي الآخر ، وكل من الشخصين يعضد موقفه أمام الآخر ، بأن يعرض جوهر حضارته ، ويدافع عنها بضراوة ، بنفس ضراوة هجومه على حضارة الشخص الآخر، وقد تحتوي إحدى الحضارتين الحضارة الأخرى إذا كان بينهما من وشائج القربى وأواصر التقارب ما يجعل إحدى الحضارتين لا تجد غضاضة في أن تُحتوى حينئذ لا نقول عنه صدام حضاري ولكنه لقاء حدث بعد تفاهم وانسجام ثم احتواء؛ أما إذا لم يكن هناك من وشائج القربى أو تشابه في الأصول أو تقارب في الفروع ، كأن تكون حضارة شرقية وأخرى غربية ، فهنا يكون الصدام ؛ لأن كل منهما له أصوله التي يختلف فيها عن الآخر ، وكما يقولون : (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا).

وكان لقاء بين القاص وبين تلك المعالجة النفسية أو التي تعمل بالبغاء في أكبر مدينة تمثل قمة الحضارة الغربية (نيويورك) ، والرواية تحاول جاهدة أن تبين هذا الاختلاف الحاد بين الشخصيتين في القيم والمعايير التي تحكم كل شخصية ، والتي يستمدها كل منهما من حضارته.

وكل حضارة تحكمها فلسفة تحدد لها مقوماتها وأطرها العامة والخاصة التي تحدد تمايزها عن بقية الحضارات ، وهذا الاختلاف الحادث بين الشخصيتين أو اختلاف معاييرهم وقيمهم ونظرتهم للإنسان والحياة حادث لأن كل منهم يصدر عن مصدر غير الذي يصدر عنه الآخر؛ فما هي القيم التي تحكم المجتمع الأمريكي التي تعيش فيه الشخصية ؟

في هذا المجتمع ليس هناك ثبات لأي قيمة من القيم ، كل شيء خاضع للبحث والتجريب (الطوطم) ليس له وجود في هذا المجتمع ، الجرأة والمغامرة والتغيير دافع لكل فرد من الأفراد ، والمعيار الحق والقيمة الجديرة بالاهتمام هي المنفعة ، ما يعود على الفرد بالنفع ، والنفع المادي العاجل في الدنيا

تلك خلاصة فلسفة المجتمع التي تنظرها فلسفة البرجماتية والتي تفترض عدم الثبات في القيم والمعايير وتفترض – بل تستوجب – ضرورة تغييرها لتلاءم الظروف القائمة.

وإذن فكل فرد مسئول أمام المشكلة التي تعترضه مسئول عن حلها حلا موفقا ، فيكون هذا الحل الموفق هو الصواب والحق ، فاعترافنا أن الحق هو نجاح التنفيذ وليس يعني ألاَّ هذا أنما يضع على الناس تبعة ، هي أن ينفضوا أيديهم من الاعتقادات الجامدة في السياسة والخلاق وأن يخضعوا أعز معتقداتهم للاختيار العملي الذي يجعل النتائج مقياس الحق وأن هذا التغيير في وجهة النظر ليتضمن تغيرا في مركز السلطة وفي وسائل اتخاذ القرارات في حياة المجتمع.

فالمفاهيم المسبقة للأخلاق والقيم مرفوضة إلا بعد أن تثبت فائدتها أو نجاحها العملي في حياة الفرد والمجتمع ، فليس هناك قوة عليا تملي على الإنسان الحق والواجب والمفروض فكل تلك المسميات لا تهبط من عل وإنما تنبت من أعماق التجربة وشواهد الواقع ، وهما اللذان يعطيانها قوة الاعتقاد والرسوخ في وجدان الإنسان هناك ، وهذه المقولة تعطينا في النهاية إنسانا له مفهوم تحدده تلك الفلسفة لكل من :

الإنسان -القيم - المال

٢-الإنسان:

سأل القاص تلك المرأة عن عملها فلم تجد حرجا أو غضاضة في أن تخبره عن عملها: (أجل أجل .لاختصر وقتي ووقتك أنا (call girll) أتعرف معنى هذا لأختصر وقتي أكثر .أنا ممن يسمونهم (المومسات)

هذا العمل بالنسبة لها لم تجد أي خجل أن تصارح به القاص ، فهو عمل كبقية الأعمال ، وهو عمل له احترامه لأنه له عائد مادي ، وقد اختارت تلك المرأة تلك المهنة بحريتها ، فليس هناك من قيد أو لوم ، ولم تخجل ولم تحاول أن تخفف من وقاحة اسم مهنتها ، لأن هذا ما تمارسه بالفعل ، إذن فلماذا تمارس شيء وتطلق عليه اسما آخر غير مسماه ؟!

وحينما عرضت عليه المرأة خدماتها وأسعار تلك الخدمات رفض القاص مجرد مناقشتها ، وتعجب كيف تنحط قيمة الإنسان إلى هذا الدرك من الضعة والدناءة وأن تبيع جسدها ؟ هذا يحدث في بلاد عنوان عن الحضارة وتحمل لواء التقدم ، (٣٠) :(هو : إن ما أزعجني في كلامك أنني تبينت منه بل وضعت أصبعي على نوع من التحلل المروع ، لا أقول حضارتكم ولكن أخطر ما في هذه الحضارة وأي حضارة المرأة فيكم . أنتن النساء مخربات روحيا وعقليا وفلسفة والذي يذهلني أنكن تستطعن إيجاد الزبائن من الرجال رجال نشئوا في مجتمع مفروض أنه راق وأنه غادر تلك المراحل البدائية التجارية الحريمية من علاقة الرجل بالمرأة كيف يقبل الرجل يعيش في أرقى بلاد العالم في النصف الثاني من القرن العشرين أن يحصل على امرأة ، جسد امرأة بصرف النظر عن إي إحساس آخر لديها مقابل بضعة دولارات ينقدها إياها لأنها قبلت أن تتعرى له من داخلها وخارجها . أني لمشمئز من حضارة تصعد بسمو علمها إلى القمر ولا زالت تنحط بجسدها إلى مدارك الرقيق الأبيض ، والأسود ، مشمئز لامرأة مثلك وأنت لست سوى واحدة من جيش عرمرم ، امرأة ذكية مثقفة واسعة الاطلاع والخبرة جميلة أجمل من ممثلات أي سينما أن تزاول عملاً يمكن أن تفعله أي متخلفة عقلية فهو لا يحتاج إلاَّ ..طبعا أنت تفهمين).

فالقاص – هنا – يحكم على المرأة وعملها بقيمه هو ومعايير الحضارة التي ينتمي إليها ، تلك الحضارة التي تعلو بقيمة الإنسان وتحيطه بهالة سامية من القيم والأخلاق ، تمنعه من أن ينزل من مكانته إلى مكانة دنيا ، فهذا الفعل – البغاء – مزموم مرفوض في عرف القاص وفي دستور حضارته وقيم مجتمعه ، لأنه لا ينظر تلك النظرة التي تنظر بها المرأة ، المعيار النفعي المادي للقيمة ، بينما القاص له رأي آخر ، فهو ينظر إلى الفعل بغض النظر عن العائد المادي له ، بل يحبذ الفعل أن لا يكون له عائد مادي على فاعله وهذا ما نطلق عليه اسم الفضيلة ، يحرص الناس – في الشرق – على الحرص عليها والتحلي بها ، " ومن هنا كذلك كان من غير المقبول عندنا أن يقال عن الأخلاق مدارها – في نهاية الأمر – منفعة تعود على الناس لأننا نرى أن الفضيلة هي جزاء نفسها أرادها لنا الله وعقلناها ، فالفعل عندنا

يعد فاضلا في ذاته بغض النظر عن نتائجها ، أهي ضارة بصاحب الفعل أم نافعة له ، وبعبارة أخرى فإننا نقيم الأخلاق على أساس الواجب لا على أساس الفائدة وهذا لا ينفي أن الواجب قد يجئ مصحوبا كذلك بنتائج نافعة فوق كونها واجبا ، ولكنه واجب يؤدى قبل أن نفكر فيما يترتب عليه من ضر ونفع "(٩).

اختلاف شاسع بين من يضع المنفعة المادية معيارًا بها يحدد قيمة الفعل وبين من يضع حكم السماء في تقيم الفعل ، فالمعيار الأول مهما كان الفعل ينتقص من قيمة الإنسان أو لا يتناسب مع آدميته إلاَّ أنه له قيمته لأنه يتوافق وذلك المعيار ،وهذا ما جعل المرأة تتحدث عن مهنتها أمام القاص كحديث الدكتورأو المهندس عن مهنتهما ، فالدعارة – هنا – تتساوى والهندسة والطب ، لأنها تقف معهما أمام ذلك المعيار.

حتى ولو كان لتلك المهنة – إن جاز لنا أن نقول ذلك – بعض الاحتقار الذي ينظر المجتمع إليها ، إلا أن الحرية التي يتمتع بها الفرد تجعله حرا في كل شيء حتى في بيع جسده للآخرين لقاء ثمن . وتلك – في عرفنا – ليست بالحرية وإنما نوع من التحلل ، ففي الوقت الذي يبيع فيه الإنسان نفسه يكون فقد صفاته الإنسانية وبالتالي هدد تلك القيمة في المجتمع كله ، ولا ينبغي أن تمنح حرية لإنسان يخرج بها نفسه من مدارج الإنسانية ، (٦٢) : (هو : أنا الذي سيقول لك هذه المرة كلمات مجرد كلمات دعوة عظيمة كدعوة الحرية والتحرر تصبح تبريرًا للتصرف في جسم الإنسان بطريقة غير إنسانية هل هذا هو التحرر ؟

هي : طبعا ....حريتي أن أبيع نفسي .

هو : هذه ليست حرية ...حرية أن يبيع الإنسان جسده ، إنها أولا تحويل الإنسان إلى تجارة ، إلى تاجر رقيق أبيض ، ثم تحويل هذا التاجر المفروض أن يتاجر في أجساد الآخرين إلى تاجر يتاجر في نفسه هو يطرحها كأي سلعة عليها بطاقة السعر ومن يدفع يشتري ويحصل ، هل تتصورين هذا ؟ يحصل عليك كلك على روحك بأدق خلجاتها ، إذ هو يدخل سر أسرارك) .

وحينما ينظر المجتمع إلى الإنسان تلك النظرة ، ويؤيدها الفرد ، يصبح في عداد السلع ، واليوم الذي يحدث فيه ذلك هو يوم إهدار الآدمية ، والمكان الذي يحدث فيه ذلك هو مقبرة لكل تلك القيم والمبادئ التي استلهمتها الإنسانية خلال تاريخها الطويل .

---

[٩]- تجديد الفكر العربي – د . زكي نجيب محمود – صفحة (٢٧٧) .

وكانت (باميلا جراهام) تعمل معالجة نفسية في إحدى مستشفيات نيويورك ولكنها تركت هذا العمل لتعمل بغيا ، لأنه يدر عليها أكثر مما لو كانت تعمل في المستشفى ، متعللة بأن هذا عمل وهذا أيضا عمل ، وهذا الانتقال لا غبار عليه مع أن عملها في المستشفى عمل إنساني ، أما خارج المستشفي فهو البغاء بعينه لأنه يحقق المنفعة ، وتلك المنفعة لا تستهدف الإعلاء من قيمة الإنسان ، وإنما تنزل به إلى أسفل سافلين ، (٦٣) : (هو : نحن أمام الإنسان الذي حوله عالمكم الذي يسمونه للأسف إلى بضاعة إلى ترس إلى جزء من آلة إنتاج واستهلاك كبرى اسمها المجتمع وما دامت كل الأعمال تتشابه في رفض الإنسان أصلا لها فيصبح الانتقال من عمل إلى عمل مسألة لا تزعج أحدا ، ولكنك لم تنتقلي من إنسانة تعمل معالجة نفسية إلى إنسانة تعمل بغية أنت انتقلت من عمل عظيم يبني روحا لأنك تساعدين أرواحًا معذبة إلى عمل يخرب روحك إلى عمل يميتك حية ، حية أسكنت روحها جسدا تستغل صاحبته شققا مفروشة مع عشرة في المائة خدمة ، جسد الخدمة فيه ممتازة جدًا فالفام دي شامبر مثقفة معالجة متعلمة ، قطعا يفضل أي زبون السكن في شقتها) .

تناقض حاد في مجتمع وصل إلى قمة التحضر وتطبق فيه أحدث نظريات العلم والتكنولوجيا ومع ذلك ما زالت هناك بقايا من النظرة البغائية للإنسان متخلفة إليه من عصر الرقيق الأبيض ، لم يعد الإنسان غاية الغايات ، ولم يعد هو المستهدف من كل نشاط أو فعل وإنما دُرج ضمن الوسائل التي تصل إلى غايات أبعد مثل المال أو غيره ، وأصبح الوجود الإنساني فارغا وأجوف لا يشعر الإنسان بثرائه أو امتلائه لأنه استنفد جميع طاقاته وإمكاناته .

٣-المال:

كل الأنشطة وكل القيم بما فيها الإنسان تستهدف غاية واحدة هي المال وقيمة العمل تقاس بقيمة ما يدره من مال ، هذا المنطق الذي كانت تتحدث به للقاص ، وكان على طرفي نقيض منها ، لأنه يرى عكس ما تراه ، يرى أن المال لا يزد عن كونه وسيلة ، ولا يكترث بالمال قدر اكتراثه بالوسيلة التي حصل من خلالها على المال ، ومن خلال ملاحقة المرأة له وذهابها إليه في الفندق ظن أن في الأمر شيئا فقد تكون عميلة لإحدى المنظمات التي تريد اغتياله أو تريد الحصول على معلومات ما ، وحينما كاشفها بالأمر قالت له (٤٦) : (هي : ولو فرض أني عميلة أتعتقد أني وصلت في عشقك إلى الدرجة التي أعترف لك فيها أني مدسوسة عليك ؟ ثم أحب أن أقول لك أنا ليس لدي مانع مطلقا أن أعمل مع أي جهة تدفع بسخاء فالنقود أصبحت هي الولاء الأعظم ، وحياة الترف حلم أي امرأة مسحوقة هنا في نيويورك ، وأي رجل حتى لو كان الكرسي الكهربائي في نهايتها) .

فلابد أن تسير في هذا الطريق الذي ذُبحت كل القيم والمبادئ على جانبيه ولم يعد يضئ ذلك الطريق سوى بريق المال ، يأخذ بمجامع الأبصار ، ويظل الإنسان مأخوذا بهذا البريق الزائف ويسير على هداه حتى ولو كان آخر الطريق هو الكرسي الكهربائي ، فهو أعمى عن كل شيء إلاَّ عن مقدار ما سيحصل عليه من مال من أي طريق وبأي وسيلة وبذلك يكون إنسانا راقيا متقدما متحضرا كما تقول ، (٦٢) : (الأرقى عندي هو الأكثر نقودًا بأقل جهد) .

٤-الوجود الداعر:

الوجود الإنساني أعلى قيمة لدى الإنسان ، وكل ما حول الإنسان يتخذ وسيلة لغاية واحدة هي الوجود ، ويوجد الإنسان ليستمتع بكل طاقات وإشعاعات هذا الوجود وبثرائه غير المتناهي ، أما أن يسخر هذا الوجود لممارسة الحب فحسب أو لجلب كم من المال ، فهو نوع من الدعارة الوجودية ، وسعار المال دفع الإنسان أن يستبدل حتى وجوده في سبيل الحصول عليه ، وليتها صفقة رابحة ، ولكنها صفقة المغبون فقد استبدل أثمن شيء يملكه بأتفه شيء لا يملكه ، وبذلك يصبح الوجود أجوف خاويا من كل معنى ولن يعوضه المال أو كل نتاج الحضارة أن يعيد ثراء وجوده ، وتلك نقيصة من نقائص تلك الحضارة التي قطعت شوطا كبيرًا في طريق التقدم والتحضر ونسيت الإنسان وكيانه الوجودي ومتطلبات هذا الوجود ، (١) (لقد فشل الغرب نفسه – وهو صانع العلم الحديث – في أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين ، فكان له العلم ولكنه فقد الإنسان ، وليس هذا الاتهام من عندنا بل يكفي أن تتبع الأدب في أوربا وأمريكا اليوم – والأدب هو المرآة المصورة للإنسان وما يعتمل في نفسه – لنرى ما يحسه الناس هناك في دخائل صدورهم من ملل وسأم وضيق وحيرة وضياع ، إن الإنسان هناك يساير عصره العلمي في مقتضياته ولكنه لا يجد الفراغ ليخلو إلى نفسه ويصغى إليها كأنما كل فرد هناك هو فاوست أغراه الشيطان بأن يبيع نفسه من أجل علم يحصله ، أو مال يكسبه ، أو قوة يستبد بها ويطغى . ولسنا نقول ذلك وفي أذهاننا أقل ذرة في الغض من شأن العلم والمال والقوة ،بل نقوله لنؤكد ضرورة أن يضاف إليها شيء آخر هو القيم الخلقية والجمالية التي تجعل من الإنسان إنسانا بعد أن جعل منه المال والعلم والقوة إنسانا بالطول والعرض) .

فإنسان تلك الحضارة خاو من الداخل ، لذلك يشعر بهذا النقص ، فيسارع بإيهام نفسه أنه موجود من خلال ممارسة أي عمل من الأعمال ، (أنا أفعل كذا إذن أنا موجود) ناسين أن من المحال أن يملأ فعل واحد الوجود الإنساني الرحب الواسع ، أو أن يناط

الوجود الإنساني بفعل مثلما أرادت المرأة أن تثبت للقاص أنها موجودة وتشعر بهذا الوجود وتستمتع به لأنها تمارس الحب ، (٦٦) : (هي : أنا أمارس الحب فأنا موجودة .

هو : للأسف أنت موجودة ، وإنما ليس لأنك تمارسين الحب ، في الحقيقة أنت موجودة مجرد موجودة لأنك لا تمارسين أحلى وأروع أنواع الوجود المحبوب المرغوب . أنا أمارس الحب فأنا موجودة ؟! هل تقبل الطفلة منطق الطفلة أن يدفع لها مقابل نقدي لقاء حبها لعروستها أو لقطتها ؟ هل لا تحس بوجودها إلاَّ وهي فقط تبيع الحب وتمتهن الجسد وتعتدي على كبريائها ، هي قطعا أما عمياء لا ترى شيئا بالمرة أقصد عمياء سلوكيا ، أو مفتحة الأعين إنما لا ترى من الكون إلاَّ حافظة الرجل وأجر الساعة ، هذه هي النهاية المحتمة لتقيم الرجل أو المرأة لنفسه ولغيره بحساب (الدولار – ساعة) . مادام قد وضعنها على أول الطريق دولار – ساعة فالبغاء هو النهاية المحتمة) .

وهناك أكذوبة يتمسك بها هؤلاء القوم أو تلك المرأة ، أن لا ضرر ولا ضرار فهي تستمتع بممارسة الحب وأيضا لا تضر أحدًا بتلك الممارسة ، نعم ، هذا يؤكده ظاهر الأمر أما حقيقته فهو يؤكد أن هناك ضررًا وضرارًا أيضا ، فالإنسان ليس حرا في التصرف فيما يخص جانبه الإنساني ، لأن تلك قسمة مشتركة مع الناس جميعهم

ولأن الأمر في النهاية أمر قيمة إنسانية ، فإن مس تلك القيمة من أي فرد ، فقد ألحق الضرر بأفراد الجنس البشري كلهم بدون استثناء ، ولكن حينما تستأثر مشاعر الأنانية والذاتية على الفرد لا يكون ثمة قيمة أو شيء من هذا القبيل لا يكون هناك إلا ذلك الفرد ورغباته الدنيئة وملذاته الوضيعة (٥٥) هو الإنسان يا وآنسة أو يا مدام أو يا دكتورة هو في النهاية بعض القيم خلاص انتهت عندكم القيمة تماما في نيويورك حتى لم يبق إلا الدولار قيمة والمتعة والأنانية الذاتية هي الهدف .

هي : الدولار قيمة هذا صحيح ، أما المتعة فما الضرر أن أستمتع طالما أني أمتع طرفا آخر ولا أضر أحدا ؟) .

فالحرية الفردية سلاح ذو حدين قد يستخدمها الإنسان في نفع نفسه ونفع المجتمع ، ولكن حينما تستحوذ علينا الأثرة فلا يكون هناك مصلحة المجتمع ولا يكترث الفرد بها بل قد يمارس ما تمليه عليه شهواته ورغباته وبذلك يكون بسبيل تدمير نفسه وتقويض ذاته .

٥-القيـم:

هذا المجتمع يقف موقفا غريبا من القيم ، فهو يرى أنها ظواهر للمرض وأن الإنسان المتمسك بتلك القيم مريض ، ينبغي معالجته ليشفى مما ألم به ، فهو شاذ أو متأخر ، ما زال يتمسك بقيم لم يعد لها وجود ، بعد أن فقدت تأثيرها في إنسان القرن العشرين وما بعده ، وفقدت سلطانها ونفوذها في ابن الحضارة الغربية في أمريكا ، فكل تلك القيم في نظره تعتبر معوقات وعقبات أمام التحضر وينبغي للإنسان إذا أراد السير في ركب الحضارة – التخلص من كل تلك القيود التي تقيد الإنسان كما يقيد الحبل الدابة ، فليس هناك دليل أو مبادئ تحدد للإنسان تلك القيم وتبين أهميتها ليس في حياته المادية فحسب بل في حياته الوجدانية والروحية ، فالإنسان جسد وروح ، وكما هو في مسيس الحاجة إلى ما يغذي جسده ، أيضا في مسيس الحاجة إلى ما يغذي روحه ، وإلاَّ تغير مفهوم الإنسان لدينا ليصبح جسدًا فقط ، وربما هذا راجع إلى أن كل فلسفات – أو معظمها – أولت اهتماما بالعقل والعلم وكل فروعه ، ونسيت في غمار انشغالها هذا أن تضع للإنسان – كما وضعت للعلم والتكنولوجيا – فلسفة تحدد المفهوم الحق والشامل للإنسان.

" فنجد الفلسفة السائدة فلسفة تحليل العلم وقضاياه لترى متى تكون الصيغة العلمية المعينة صادقة ومتى لا تكون ولكنها لا تعبأ بالإنسان إذ تترك أمر الإنسان للأدب والفن فلنا عندئذ أن نقول لهم : لا أننا نسايركم في فلسفة العلم لكننا نوجب أن تضاف إليها فلسفة للإنسان الحالي الذي ينبض في صدره قلب ويطمح في حياته إلى أبعد الغايات " [١٠].

وهذا ما دفع (باميلا جراهام) أن تتهم القاص بالمرض حينما رأت أنه متمسك بما يسمى (القيم) ، فلم يدخر القاص وسعا في مقارعتها بالحجة (٦٥) : (هي : مبتسمة في سخرية : أنا إذن مريضة يا طبيبي السؤال هو في الحقيقة : من فينا المريض ؟ لماذا لا تكون أنت المريض بهذه الأفكار التي تزحم بها رأسك مريض بقيمك ومثلك ، وأكون أنا الطبيبة ، لماذا لا يكون الوضع فعلا هكذا ؟

[١٠] - تجديد الفكر العربي – د . زكي نجيب محمود – (٢٨٦) .

هو : أنا يا مدام (قالها هذه المرة قاصدا) متحضرًا جدًا ، إن الإنسان ليس فقط أرقى الكائنات ولكنه أخطرها على الإطلاق أخطرها حتى على نفسه ، وأنه ما لم يزود هذا الإنسان أو بالأصح ينقى من ذرات الغبار حتى ذرات الغبار التي تعلق بهذا الشيء المخبأ خلف جبهتي لاستحال من أرقى إلى أخطر وأحط كائن في الوجود في عكس اتجاه التطور الخلاق ، يدمر بادئا أو منتهيا بنفسه ومن حوله وكل أولئك الذين كان من الممكن أن يكونوا أحياء وأصدقاءه وحتى معارفه) .

وإن كانت تفهم معنى الأخلاق فهما غريبًا ، فهي تراه الصدق مع النفس فحسب ، وتلك فضيلة لا تكمل إلاَّ إذا كانت تحرص على مكانة النفس الإنسانية (٥٧) : (هي : أنت أخلاقي جدًا .

هو : وهذا منتهى التحضر في رأي ، فالأخلاق ، قمة الخلاق قمة التحضر هي الصدق مع النفس .

هي : وعلى هذا المقياس نفسه فأنا الأخرى أخلاقية جدًا) .

والقيم ليست منفصلة على الإنسان ، وليست نوعا من الترف ، ولكنها في صميم تكوينه وأحد أعمدة كيانه الآدمي الذي يشهد له انه ابن حضارة إنسانية مرت عليه قرون حتى وصل إلى تلك الدرجة من هذا البناء القيمي الذي يحافظ على آدمية الإنسان ، ويحول بينه وبين التردي في هوة الانحلال . وحينما تصبح المرأة مبتذلة سهلة المنال لكل من شاء ، فإنها تدمر تلك الأنثى الإنسانية التي يعتمد عليها في بقاء ونقاء الجنس البشري ، ولأنها يناط بها هذا الدور الخطير منذ وجود الإنسان على الأرض ، فقد تطورت وارتقت تلك الأنثى كما ارتقت الإنسانية وأصبحت الإنسانية تتشكل وتتحور بما تتشكل عليه تلك الأنثى ، فمنها يتفرع الجنس البشري كله ، فهي بمثابة الجذر ، وإذا أصاب الجذر مرضا انتقل تأثيره إلى بقية الساق والفروع وأضحت الشجرة كلها مهددة بالسقوط بعدما دبت فيها عوامل الفناء ، (٦٠- ٦١) (هو : الأنثى التي كلفت الحياة ملايين السنين من الإيغال في التعديل والتبديل حتى أصبحت قمة الكون النامية الأنثوية أرقى إبداع للخالق ، بقرار أحمق ليس طفليًا بل تافهًا وحقيرًا ، فالأطفال أعظم بكثير وأكثر براءة ونظافة ....بقرار كهذا تلغي ملايين السنين من التطور وتقذف نفسها ساقطة هاوية إلى حيث توقف التطور بالقطط والكلاب والفئران ، حتى هذه الحيوانات تحظى بالجسم ببطولة بمعركة تدور بين الذكرين حول القطة وهي الهدية هي الوسام ، والفائز هو فعلا من يستحقها ...إنها أبدًا لا تطلب مقدما أو مؤخرًا أو تأخذ أي شيء ، إنها بكل الجلال والسخاء تعطي ما نقيس بالثمن والساعة نحن لا تتحول إلى بضاعة ذات سعر ، وتفخرين أنت بهذا باعتبارها مهنة كسب أكبر قدر من النقود في أقصر وقت تكسبين

الدولارات هذا صحيح ، ولكن الحسبة مغلوطة تماما ، فأنت حتى لو أوغلنا في التشبيه ، رأس مال تكسبين مائة عاجلة وتخسرين مئات آلاف من رأس مالك ، وطريقة سهلة جدًا تكسب النقود ولكنها كمهنة من أمتهن احتساء وجرع ماء النار في دقيقة يأخذ مائة دولار ولكن الكارثة هي كم ما يحدثه الداخل في أحشائه من تهرؤ وتآكل في صميم روحه وذاته بل وفي جسده) .

وكانت رسالة الدكتوراه لتلك (باميلا جراهام) بعنوان السلوك الإنساني عند الحيوان فالقاعدة لديها هو الحيوان ، تبحث عن السلوك الإنساني عند الحيوان ، لأن القيم ليس من خصائصه ، وهو كائن متخلف ، أما الإنسان فقد تعدى تلك المرحلة ، ترك مرحلة التخلف والتأخر وترك وراءه كل ما كان يربطه من تلك المرحلة من قيم ومبادئ ومعايير ، وحينما يضع القاص تلك الحياة التافه والوجود الآسن الضحل إن استمتاعها هذا لن يدوم ، فحالما يزول هذا الجمال الذي يجعل الرجال راغبين فيها رغبة الديدان للجيفة بدأت تتهمه أنه مومس وبدأت تهاجمه حينما رأت أن الخناق يضيق حولها ، (٦٩) : (هي : تقصد أساسا ما تسميه بلغتك القيم العليا .

هو : وما تسميه أنت خصائص الحيوان .

أي حياة لذيذة تلك التي تدفعين فيها الثمن – كدين شيلوك – من لحمك ودمك ! أنها تصبح كمدمن الهيروين الذي يبيع كل يوم أصبعا من أصابعه ليظفر بالجرعة ، اسمحي لي يا سيدتي أنت مريضة جدا هيأ لك مرضك اقتناعا كاملاً بحياة تعرفين من أعمق أعماقك أنها ملفقة وكاذبة ومليئة بخداع النفس .

هي : لقد بدأت أمل حديثك .

هو : لأنه اقترب من نقطة جنونك الحساسة ، لقد صغت لنفسك كما تقولين الحياة المثلى وتحبين الرجال وتغيير الرجال ، وفوق هذا تكسبين نقودًا وسهرات وكل يوم وجه وجسد جديد ولكنك تستيقظين ذات صباح لتجدي أنه لا جديد بالمرة لا وجه ولا جسد ولا حتى إنسان ليقول لك صباح الخير ، أنت كما تبدين في الثلاثين ، تصوري كم إنسانا سيحضر عيد ميلادك الخامس والأربعين بل حتى الأربعين .

هي : لقد بدأت تصبح مملا جدا . ماذا تريد مني ؟ ماذا تأخذ على ؟

هو : نفس ما تفخرين به أنك مومس .

هي : ولكنك أنت الآخر مومس ، وكل هؤلاء الحليقون المبتسمون المتحدثون في همس مؤدب خافت كل من ترى من الرجال والنساء حولك مومسات ومومسون) .

وحينما يصل القاص معها إلى منطقة لا تجد مناصا من الاعتراف بأن وجودها أكثر دناءة ووضاعة من وجود الحيوان ولكنها مع ذلك نظيفة لا لشيء إلاَّ لأنها لا تكذب على نفسها ولا على من حولها ، فهي قذرة ، ولا نقول غير ذلك لا تضع قناعا على وجهها أو لا تسمى باسم غير اسمها الحقيقي ، ولا تتستر لواجهة جميلة ، ولأنها صادقة فهي نظيفة ، لأن القذارة أن تضع قناعا يظهرك بصورة الحمل الوديع وأنت ذئب ، أو تتسمى باسم يحترمه الجميع بينما هي في الواقع مومس ، النظافة هي الحقيقة ليس أكثر ، وبهذا المعيار هي نظيفة ، ولكن القاص لا يخدع بهذا لأنها حتى لو كانت نظيفة ، فهي – ولا شك – ستخسر نفسها بعد أن يذوب وجودها شيئا فشيئا ، كما تذوب قطعة الثلج تحت أشعة الشمس المحرقة وتنفجر باصياح غاضبة أنها أنظف قذرة ، أنظف من كل من حولها ، (٧٢) : (هي : لا يهمني كلامك أبدًا ، أنا قررت حياتي. أنا مومس ولكني نظيفة ، فأنا لا أقول أنا مدام فلان ، أو صديقة علان أو أرملة تلتان ، أنا نظيفة أقولها لك وللجميع : أنا مومس وبقولي هذا على الملأ أصبح أنظف منكم جميعا ، فأنا لا أكذب عليكم ولا على نفسي ، أنتم الكذابون والكذب اخدش للشرف من النفاق أنا المومس فعلاً ، وما أفعله مومسة ، ولكني نظيفة.

هو : لا يا سيدتي لا تخدعي نفسك فأنت تفخرين أنك الوحيدة التي لا تخدعين نفسك . قولي أنا مومس وأن بيع الجسد أحقر شيء يرتكبه بشر. ولكني لا أعرف لماذا أنا أفعله ولا تهربي خلف رداء العموميات قولي لنفسك أنك ستخسرين نفسك وأنك بحاجة إلى من يعالجك أو يأخذ بيدك).

وتصل إلى الدرجة التي لا تستطيع فيها الصبر حينما أظهر القاص لها وجودًا عاريا بدون تلك الأقنعة الكاذبة التي تحاول أن تختفي ورائها ، وانفجرت غاضبة تقول ، (٧٣) : (هي : أنا نظيفة ...نظيفة . بل أنا قذرة قذرة جدًا ولكني أقولها ها أنذا أصرخ بها .أنا نظيفة جدا لأني قذرة جدًا جدًا .أنا أنظف قذرة أنظف منكم كلكم ، (بول شيت) عليكم جميعا) .

والمجتمع أو الحضارة التي يعيش فيها المجتمع هي التي شكلت الفرد على هذا النمط من التفكير وهي التي ألهمته هذا الإطار الضيق لينظر به إلى الوجود الإنساني الرحب الثري ، إن الإنسان كائن شره نهم ، سياط الرغبة والتملك تلهبه فتشعل فيه نيران الشهوات ويؤجج الغرائز الحيوانية ، ويعلو صوت الحيوان ليطغى ويطمس صوت الإنسان ، وطالما أصبح حيوانا ، فالمكان أو المجتمع الذي يعيش فيه غابة ، ويسود قانون الغاب ، أن يأكل القوي الضعيف ، فلا قانون ولا قيم ولا أخلاق فكل تلك المسميات من مخلفات العصور المتأخرة القديمة ، ولا تصلح تلك المفاهيم إلا للمتاحف أو في حصص التاريخ القديم للإنسان ، أما في القرن العشرين وفي قمة الحضارة الغربية فاعتمادك في المقام الأول على مكرك ودهائك ونفاقك وسيشبع كل شيء لقاء

قضاء متعة أو رغبة من الرغبات الحيوانية ، (٦٨) :(هي : إنك أيها الأستاذ العالم تخاطبني وكأنك تخاطب العالم من فوق برج إيفل الشرف والصدق والإنسان المتحضر الراقي أين على سطح كرة أرضية مكونة من وحل وطين ماذا أفعل أنا التي ولدت في غابة لم أصنعها أنا ولكنها كائنة وموجودة أحافظ على بقائي وأظفر بالمأوى والطعام والمتعة وإن لم أجد أسرقها وإن لم أستطع أقتل وأغتصبها ! أنت تملك ترف أن تعيش شريفا ولكن غيرك حتى لو أراد لا يملك هذا الترف .

هو : أنت تكذبين على نفسك أنت في إصبعك خاتما يعول عائلة بأكملها في بلادي لثلاثة أعوام أنت لست جائعة لهذه الدرجة .

هي : لأن جوعكم هو أبسط أنواع الجوع جوع الحيوان إلى الطعام ولكن جوعي هو جوع الإنسان إلى حياة الإنسان جوع الحياة بمتعة الحياة لمجرد البقاء هي حيوانات متخلفة ، إني جوعي للسفر والرحلة والحياة اللذيذة . الفرق أنكم حيوانات جوعي بينما جوعي أنا وجوع غيري هنا هو جوع الإنسان ، أبشع أنواع الجوع لأنه ليس جوع معدات إنه جوع مراكز عليا وخيالات وأحلام جوع النوازع العليا يا أستاذ .

هو : ومن أجل تلك النوازع العليا تنحطين وجسدك إلى ما هو أدنى من مراتب الحيوان .

هي : فليكن أني أغوص بالحيوان في لأمتع كل ما يجعل مني إنسانا .

هو : تفقدين بهذا الحيوان والإنسان معا . فالإنسان لا يرتفع فوق حيوان هابط ، الإنسان يصبح إنسانا حين يشبع فيه الحيوان ويحترم فيه الحيوان حيوانيته لكي يستطيع الإنسان فيه بعد هذا أن يفخر ويزهو وإنسانيته ، إن الوحل لا يصنع أساسا لناطحة سحاب مهما حفلت أدوارها العليا بالديكورات والتحف والزينات) .

إنها تسعى سعيا لاستنفاد أخر قطرة من عصير الوجود ، تعيش بأقوى مما تستطيع تحمل الحياة بكل عضلة في كيانها وكل نبضة في عروقها ، وقد يسرت الحضارة المتقدمة لها سبل الاستمتاع بالحياة ، ولكن متى ارتوى طالب متعة الحياة ؟ إنه كشارب الماء الأجاج لا يزيده هذا الشرب إلا عطشا على عطش هذا الظمأ جعلها تنشد المتعة بأي ثمن ، وليس هناك من قيم أو معايير تصنع إفريزا لطريق المتعة ، فأي جهة شاءت اتجهت حتى لو باعت نفسها من أجل تلك المتعة بل أن بيع الجسد أو النفس يكون من أبخس الأثمان لتلك الصفقة ، إنهم باعوا أنفسهم للشيطان ففتح لهم أبواب عوالم متخمة باللذة والشهوات والذي جعلهم سلس القيادة للشيطان تلك الفلسفة الزرائعية التي تقيس كل عمل بنتيجته وعائده النفعي ومرجعه المادي ، نعم ، قد

يصلح تطبيق هذا على المادة الصماء أما على الإنسان الذي قد يضحي بحياته من أجل قيمة أو من أجل مبدأ أو من أجل كلمة ذلك الإنسان الذي يعلم أن لا بقاء لإنسانية الإنسان بدون قيم تكون حاجزا أن تختلط حياته بحياة من هم دونه في الرقي والسمو ، وتلك ميزة وعيب لا نريد أن نغمطها حقها كما لا نريد أن نتجاوز عن عيبها

أما الميزة فقد ارتقت بالمستوى المادي للإنسان ، وسخرت له البر والبحر يفعل فيهما ما يشاء، أما العيب فإن هذا التقدم والتحضر فتنه عن نفسه فنساها في غمرة الاستكشاف والبحث والتحليل والابتكار ، وقد قال القاص جملة تعتبر هي المحور الذي يدور حولها فكر الرواية ، فحينما دخلت عليه في فندقه وبعد حوار بينهما أضحى الموقف هكذا : (هو : بنصفه عار بدون جاكته وهي بنصفها الأسفل عار بدون بنطلون) ...

وكأنهما شجرتان هو له الجذور الضاربة في أعماق التاريخ العريق وهي مثقلة بالثمار على أغصانها ولكن لا جذور هناك ، فهي في حاجة إلى تلك الجذور وهو في حاجة إلى تلك الثمار ، إلا أنه يرفض تلك الثمار لأنها لم تنبت في أرضه ، فهي غريبة عليه ولن يحدث هذا إلا حينما تأخذ الثمار غذاءها من تلك الجذور التي أنبتتها روحانية الشرق ورسالاته وكتبه ، تسري في شعاب الجذور على هيئة قيم ومعايير وبذلك تكتمل لشجرة الحضارة كل صفاتها الإنسانية ، وحينئذ تؤتي أكلها لكل من شاء الأكل ، فالجذور متأصلة في الأرض ، ضاربة في أعماق التاريخ القيمي للإنسان والأغصان خضراء مثقلة بالثمار المتخمة بما استمدته من الجذور ، وبما أخذته من هواء وشمس الحضارة .

سـيرة ذاتـيـة

الاسم : محمود محمد محمود القليني

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة – عضوية عاملة رقم ١٩٧٧

الهاتف : ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩

البريد الالكتروني :*elkellenymahmoud@yahoo.com*

الأعمال المنـشـورة :

١- إنهم يذهبون : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة –.١٩٨٢

٢- الدجال والشيطان : روايـة مركز معروف بالإسكندرية –.١٩٨٥

٣- إخناتون والكهنة : مسرحيـة الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-.١٩٩٥

٤- محنة الإمام أحمد بن حنبل: مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة .١٩٩٧

٥- مصرع الخراساني : مسرحيـة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة٢٠٠٢ .

٦- غائب لا يعود : مسرحيـة الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٧- الفكر الإسلامي ومستجدات العصر: كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥ .

٨--عش حياتك سعيدا : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار – .٢٠٠٥

٩-- النساء فقدن عروشهن : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة .٢٠٠٦

١٠- العمرية - في رحاب عمر بن الخطاب: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق .٢٠٠٧

١١- أمير الصحافة العربية : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار٢٠٠٩ .

١٢- شخصية موسى النبي : كتاب مكتبة بستان المعرفة٢٠١١ .

١٣– الإسكندرية عناقيد العشق والغضب: رواية مكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.

١٤- الثورة في وجدان المصريين:كتاب مكتبة بستان المعرفة .٢٠١٢

١٥- الباحثون عن الله: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق٢٠١٣.

١٦- الخروج من الجلد: رواية مكتبة بستان المعرفة.٢٠١٣

١٧- بلد راكبها عفريت : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة .٢٠١٠

١٨- شخصية المسيح:كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار .٢٠١٤

١٩- شخصية النبي محمد : كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٤.

الجوائـــــز:

جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد .

جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إخناتون والكهنة .

جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراساني .

جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني).

جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس) .

جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ .

جائزة من نادي أبها بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ .

جائزة من نادي القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١.